السنة الثالثة (ذو القعدة سنة ١٣٥٥ هـ — فبراير سنة ١٩٣٧ م) العدد الثالث

صحيفة دار العلوم

صدرت في ربيع الأول سنة ١٣٥٣ هـ ، ١٩٣٤ م

مجلة الأدب واللغة والتربية والاجتماع

تصدرها «جماعة دار العلوم»

كل ثلاثة أشهر

قررت وزارة المعارف ومجالس المديريات «صحيفة دار العلوم» في جميع مدارسها

رئيس التحرير	المدير
محمد علي مصطفى	محمد نجيب حتاتة

المراسلات الخاصة بالتحرير ترسل باسم رئيس التحرير

بنادي دار العلوم ٧٧ شارع الملكة نازلي

الاشتراكات والحوالات المالية

ترسل باسم أمين الصندوق

السباعي بيومي

المدرس بدار العلوم

الاشتراك السنوي

في القطر المصري	لغير الطلبة	٢٠ قرشا
	للطلبة ومدرسي المدارس الأولية	١٢ »
خارج القطر		٦ شلنات انجليزية
ثمن العدد		٥ قروش

المطبعة الرحمانية بمصر

"إِنَّ بَاحِثًا مُدَقِّقًا لَوْ أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ أَيْنَ تَمُوتُ
اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ وَأَيْنَ تَحْيَا، لَوَجَدَهَا تَمُوتُ فِي كُلِّ مَكَانٍ
وَتَحْيَا فِي دَارِ الْعُلُومِ"

الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

تقديم

يصدر هذا الجزء من صحيفة دار العلوم ، وقد حقق الله لمصر ما كانت ترجوه وتجاهد فى سبيله جهاد الكماة فى حومة الوغى — ألا وهو الاستقلال الذى كانت تصبو إليه النفوس وتتجه الآمال — وانتهى ذلك الكفاح ، الذى طال أمده بين دولة قوية تملأ جنودها البر وسفنها البحر وطياراتها الفضاء ، وبين مصر الفتية الناهضة ، التى لم يكن لأبنائها من عدة ، سوى مايعمر قلوبهم ، من إيمان ثابت وعقيدة راسخة بأن من حقهم الطبيعى أن يعيشوا أحراراً ، كما خلقهم الله أحراراً ، أو يموتوا كراماً بين طعن القنا وخفق البنود .

ففى سبيل مصر تلك الدماء الزكية التى خضبت الأرض ، وفى ذمة الله تلك الأرواح الطاهرة ، التى قدمها شباب الوادى فداء للوطن العزيز .

لقد استقلت مصر فشملها الفرح وعمها السرور ولم ينس أبناؤها الأمجاد — وهم فى نشوة النصر — ما للزعماء عليهم من حق فقاموا يتناقشون فى صنوف التكريم ، ويتخذون مظاهر شتى لتقديرهم ، والاعتراف لهم بكل ما قدموا من خير لبلادهم .

وكان من أروع حفلات التكريم ، تلك الحفلة التى أقامها الموظفون لحضرة صاحب المقام الرفيع الرئيس الجليل مصطفى النحاس باشا وصحبه المخلصين الذين أبلوا فى سبيل الاستقلال بلاء حسناً ، فقد جمعت الحفلة جمهرة من خيرة المثقفين فى مصر ، وكان لأبناء دار العلوم حظ فى اشتراك جمهورهم فيها ، وكان لشاعرهم الفذ ، الأستاذ على الجارم بك ، المفتش الأول للغة العربية فى وزارة المعارف قصيدة من أمهات القصائد ، عبر فيها عما يكنون بين جوانحهم من وطنية صادقة

وتقدير للعاملين لخير الوطن من رجالات مصر ؛ وإن مصر لتبدأ هذا العهد الجديد بقلب فتى وهمة وثابة ، وهى ترقب من جميع أبنائها أن يشدوا العزائم ويؤدوا للوطن ما يرفع شأنه ويعلى مكانته .

وإننا ـ معشر المعلمين ـ لنعاهد الوطن على أن نسير فى إعداد الجيل الحاضر إعداداً أساسه التفانى فى حب الوطن والإخلاص لأهله والعمل لخيرهم جميعاً ـ عاشت مصر وعاش مليكها العظيم .

وهذه قصيدة صاحب العزة الأستاذ الكبير على الجارم بك ننشرها فى صدر الصحيفة .

أَبَتْ أَعلامُ مجدك أن تُسَامَى وعزَّتْ همة لك أن تُراما
تُحلّق للنجوم فتَعتليهـــــا وتبغى فوق دَارتها مقاما
بعثْتَ الشَّرْقَ يبْسُط ساعديه ويمسحُ عن محاجره المناما
تمر بصخره الأهوالُ حَسْرَى وتخشى الحادثاتُ به اصطداما
وصارت مصرُ قِبلةَ كل شعبٍ وقام المصطفى فيهـــا إماما
على دِينٍ من الأخلاقِ سَمْحٍ ورأى ساطع يمحو الظلاما
وعزمٍ لو رمى جَنَبَاتِ رضوَى لدُكَّ الطودُ وانهدم انهداما
تطوف به الحوادث صاغراتٍ فتُغْضِى أعينا وتخر هاما
نضاه الله يوم نضاه عَضْبًا يرد مضاؤهُ الجيشَ اللُّهاما
يصاحبه من الإِيمانِ قلبٌ ونصرُ الله يتبعُـــه لِزاما
ويَصْقُله الصِّدامُ المرُّ حتى ظننا أنه يَهْوَى الصداما
وكم فى الناس من سيفٍ صقيلٍ تراه - إذا دعا الداعى - كَهاما

* * *

نهضت بمطلبٍ وَعْرٍ جسيم فنِلْتَ بنيله الشرف الجُسَاما
تخوض له الصعابَ الصُّمَّ خوضاً وتقتحم الخطوبَ له اقتحاما
وتزأرُ دونه زأرَ ابنِ غابٍ أَبِىِّ أن يُسَاوَمَ أو يُسَاما
ومَنْ كالمصطفى للحق ردْءاً إذا الرِّعديدُ دون الحق ناما ؟
ومن طلب العلا فى الله أَلْقَى إليه شامسُ الدهر الزماما

* * *

جفا الدنيا ، وهام بحب مصر هُياماً ألهم الصَّبَّ الهياما
تلوذُ به ، فيكلؤُها كريماً وترجوه ، فينصرها هماما
وينفحُ دونها فى الحقِّ سيفاً ويَهْمِى فى مرابعها غماما
محامدُ ، لو حواها الشعر رقت حواشى الشعر ، وانسجم انسجاما
وآمالٌ ، يتوّجُ مبتغاها تمامٌ ، عَلَّمَ البدرَ التماما
لقد ضاق الحسودُ بما يلاقى ومن ذا يكشف الداء العُقاما ؟
وما عيْبُ الضياءِ وقد تجلى إذا عَمِيَ المكابر ، أو تعامى ؟
إذا اعتصمَتْ بحبل الله نفسٌ دنا الغرضُ البعيد وقد ترامى
وذُلِّلتِ السبيلُ ، ودانَ طوْعاً من الآمال أصْعَبُها مراما
ومِنْ كَرَمِ النفوس ترى نُضاراً ومِنْ هوْنِ النفوس ترى رَغَاما
ورُبَّ فتًى كصدر الرمح صُلْبٍ وآخرَ خائرٍ يحكى الثماما
ومَنْ خَلَقَ الضراغم واثباتٍ إلى عزَمَاتها ـ خَلَقَ النَّعاما !

✡✡✡

زعيمَ الشعب ، أنت له رجاءٌ إذا ما أشجعُ الأبطال خَامَا
دعتْ مصرٌ ، فكنْتَ لها جواباً وكنتَ لِصَوْنِ وَحْدَتِها عِصاما
رعيْتَ حقوقَها ودفعْتَ عنها ومَنْ كالمصطفى يَرْعى الذماما ؟
وحامَتْ حولك الآمال نَشْوَى كطيرٍ دَفَّ فى روضٍ وحاما
وأصبحَ عهدُكَ الزاهى سلاماً يرف فلا نِفَارَ ولا خصاما
توطدت العقيدةُ واطمأنت فلا صَدْعاً نخاف ولا انقساما

وعاد لمصر ماضيها مجيداً وقام العدلُ فى مصرٍ قياما
بنيتَ فكان حين بنيت أساً وأرسيتَ القواعد والدعاما
رأيتُ لكل مملكة نظاماً ولا كالعدلِ فى الدنيا نظاما

✡ ✡ ✡

رعاكَ الله ، قد أرضيْتَ سعداً وكنت لفوْزِ دعوته قِواما
يُمِدُّك منه رُوحٌ عبقرىٌّ وينفثُ فيك رأياً واعتزاما
خليفتُه ، وقائدُ تابعيه إلى أن يبلغ المجد السَّناما
ترفرف رُوح سعد من علاها عليك وتملأُ الدنيا ابتساما
سلكتَ سبيله شبراً فشبراً تُقاسِى وعرَها عاما فعاما
تلاقيكَ الصِّعابُ فلا تبالى أَماءً خُضْتَ فيه ، أم ضِراما
فما ثَلَمَتْ لك الأحداثُ سيفا ولا حطَمَتْ لك الدنيا سهاما
ومن عقد الإله له لواء فلسْتَ ترى لعُقْدته انفصاما

✡ ✡ ✡

وحَوْلكَ مِن صِحابك كُلُّ نَدْبٍ عَيُوفٍ أن يُضيمَ وأنْ يُضَاما
نسيمُ خَميلةٍ ، والجوُّ صَحْوٌ وعاصفةٌ ، إذا ما الجوُّ غامَا
يَسيرُ لِقَصْدِهِ النائى إمَاماً إذا لم يُلْفَ سبّاقٌ أَمامَا
شمائلُ لو وعاها الحس كانت عبير المسك أو ريح الخزامى
صِحَابُ المصطفَى وَرِجَالُ سعدٍ مَقَامٌ لَا يُنَالُ وَلَا يُسَامَى !

✡ ✡ ✡

نَزلتَ بِلَنْدُنٍ ، فَرَأَوْا كَرِيماً   أَبِيًّا ، قَادَ أَبْطَالًا كِرامَا
بَليغاً صمْتُهُ ، والصَّمْتُ حَزْمٌ   وسَحْبانًا ، إذا ارْتَجَلَ الكَلَامَا
فكم فى غمـةٍ ألقَى ضياءً   وكم عن حجة كشف اللثاما
له من قوة الرحمن ركنٌ   يلوذ به اعتزازاً واعتصاما
رَأَوْا كرم النضال فأكبَرُوه   وكانوا خيرَ من قدر الأَنَامَا
ونالت مصر الاستقلالَ طلْقاً   وطوَّحَت المقاودَ والخطاما
وصار القولُ فى جهرٍ حلالاً   وكان الهمسُ فى سِرٍّ حراما
ولولا المصطفى لم تحظ مصرٌ   ولا بلَّتْ من الأمل الأُواما

* * *

معاهدةُ الصداقة والتآخى   غدت لجهودك العظمى وساما
رفعتَ بها عن الأعناق نيراً   ومزَّقْتَ الغمائم والكماما
وسابقتِ المالكَ مصرُ وثبا   إلَامَ تظلُّ وانيةً إلاما ؟؟
تعالى الله هـذا فضل ربى   كشفتَ به عن الفتح القَتاما
وكلٌّ عظائم التاريخ رَهنٌ   إلى أن يستخيرَ لها العظاما
ولا يحظى بنيل المجدِ إلَّا   فتىً هجر الملالة والسآما
سجلٌّ الفضل كنتَ له ابتداءً   وصحفُ النبل كنت لها ختاما
صفاتك أعجزتْ شعرى ، ونخرٌ   لمثلى أن يلم بها لماما
بقيتَ لصرح الاستقلالِ ركناً   ودمْتَ لرفع رايته ، وداما
وأبقى الله « فاروقاً » لمصر   وأبقى عهده الزاهى سلاما

على الجارم

أبو جعفر المنصور

للأستاذ الجليل الشيخ أحمد الإسكندرى

عضو مجمع اللغة العربية الملكى والأستاذ بدار العلوم سابقا

« فى نحو سنة ١٩١٠ اتفق ثلاثة من أعلام الأدب فى مصر ، هم أساتذتنا الأفاضل : المغفور لهما حفنى بك ناصف ، والشيخ محمد المهدى ؛ وفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد الاسكندرى - مد الله فى عمره - أن يؤلفوا كتاباً جامعاً لتاريخ الأدب فى عصوره المتتابعة ، وقسموا موضوعات الكتاب فيما بينهم ؛ وكان من نصيب أستاذنا الجليل الشيخ الاسكندرى أن يكتب تاريخ الأدب فى العصر العباسى ؛ فألف كتاباً جليلا بلغت صفحاته نحو الألفين ، ويفكر أستاذنا فى طبعه متى تهيأت له الفرص . ونرجو أن يكون ذلك قريباً إن شاء الله ، حتى لا يحرم أبناؤه - أساتذة اللغة العربية فى المدارس المختلفة - الاستزادة من علمه الفياض . والمقالة التالية فصل من فصول هذا الكتاب »

هو عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس ، رجل بنى العباس ، والمؤسس الثانى لدولتهم ، وأحد أساطين السياسة والبلاغة والبصر بالدين والسنة واللغة والأدب وأخبار الناس ، وكان أفحل بنى العباس هيبة وشجاعة وحزما ورأيا وجبروتا ، جماعاً للمال ، تراكا للهو واللعب ، كامل العقل ، متزهداً متقشفا فى معيشته ، قتل خلقاً كثيراً حتى استقام له ملكه .

ولد سنة ٩٥ وتولى الخلافة بعهد من أخيه سنة ١٣٦ وتوفى سنة ١٥٨ وكان أكبر من أخيه السفاح بتسع سنوات ، وإنما عهد إلى السفاح بالخلافة قبله لأن أمه عربية من بنى الحارث من اليمانية ، ليكون له عصبية من أخواله فى قيام دولته .

منشؤه ومرباه :

ولد أبو جعفر بالحميمة ، وبها درج ، ومنها بزغ . وتربى فى حجر والده وجده ، ولقن أسرار الدعوة وكنه أصولها وفصولها من أبيه وأخيه إبراهيم الإمام .

وتقلبت به أحوال كثيرة فى الرحلة لطلب العلم والتصرف .

فحكى اليعقوبى أنه عمل لسليمان بن حبيب المهلبى أيام بنى أمية ، ثم عتب عليه فى أمور ، فأمر بضربه وحبسه ، فتخلصه أبو أيوب الموريانى كاتب سليمان ،

فحفظها أبو جعفر له ، فلما ولى الخلافة استوزره ثم أنكر عليه أموراً وخيانة فقتله.
ولم يقتصر فى اكتسابه العلم على أبيه وجده ، بل طالما شد الرحال هو وأخوته
وعمومته إلى مجالس العلماء والزهاد : كالزُهرى الفقيه ، وعطاء بن يسار المحدث ،
ومنصور بن عمار الزاهد . ومن قرنائه فى طلب العلم الإمام مالك بن أنس ،
وسفيان الثورى ، وسليمان الخواص ، والأوزاعى ، وعمرو بن عبيد . ولم يمتز
عنه هؤلاء إلا بالزهد والانصراف عن الدنيا ، كما كان يبز فى اللغة والأدب
والأخبار المبرزين فى ذلك من أهل عصره ؛ ولهذا قلما راجت عنده بضاعة
المداحين والمتشدقين ، ولم ينل جائزته منهم إلا كلُّ منقطع النظير .

مبلغ علمه وأدبه :

كان المنصور نادرة عصره فى علوم العربية والإسلام ، ووقائعه فى امتحان العلماء
ومناظرة الفقهاء والرواة ومناقضة الشعراء مشهورة . وفيه يقول الإمام مالك
ابن أنس الأصبحى فى موافاته له بمنى سنة ١٦٣ مما قصه عنه ، ومالك من لا ينقض
قوله ، ولا يتهم فى شهادته :

. . . ثم فاتحنى فيما مضى من السلف والعلماء ، فوجدته أعلم الناس بالناس ،
ثم فاتحنى فى العلم والفقه ، فوجدته أعلم الناس بما اجتمعوا عليه ، وأعرفهم بما
اختلفوا فيه ، حافظا لما روى ، واعيا لما سمع . ثم قال لى : يا أبا عبدالله ، ضع هذا العلم
ودونه ودوّن منه كتبا ، وتجنب شدائد عبد الله بن عمر ، ورخص عبد الله بن
عباس ، وشواذ ابن مسعود ، واقصد إلى أواسط الأمور وما اجتمع عليه الأئمة
والصحابة (رضى الله عنهم) لتحمل الناس على علمك وكتبك ... فى كلام غير هذا .
وقد أراده المنصور على أمر فاستعفاه ، فقال له : قد أعفاك أمير المؤمنين ، وايم
الله ما أجد بعد أمير المؤمنين أعلم منك ولا أفقه .

ومن الحكايتين الآتيتين يتبين لنا مبلغ الرجل من الأدب واللغة وشدة حفظه
لكلام الشعراء ونفوذ خاطره :

دخل المدينة مرة ، فقال للربيع : ابغ لى رجلا يعرفنى طرق المدينة ودور
الناس ؛ على ألا يبتدىء بشىء حتى أسأله عنه . فجاءه به ، فجعل يسأله فيجيب

فلما فارقه أمر له بألف دينار . فطالب الرجل الربيع بها ، فقال : ما قال لى شيئا ، وسير كب فذكره . فركب مرة أخرى ، فجعل يعرفه ولا يرى موضعا للكلام ؛ فلما أراد أن يفارقه قال الرجل مبتدئا : وهذه يا أمير المؤمنين دار عاتكة التى يقول فيها الأحوص :

يا دار عاتكة التى أتعزل   حذر العدا وبها الفؤاد موكل

فأنكر المنصور ابتداءه ، فأسر القصيدة على قلبه فإذا فيها :

وأراك تفعل ماتقول ، وبعضهم   مذق اللسان يقول ما لا يفعل

فضحك ، وقال : ويلك يا ربيع ، أعطه ألف دينار

وقال مرة لقثم بن العباس بن عبد الله بن عباس ، وكان عامله على اليمامة والبحرين : ما القثم ؟ ومن أى شىء أخذ ؟ فقال : لا أدرى ! فقال : اسمك اسم هاشمى لا تعرفه ! أنت والله جاهل ! قال : فإن رأى أمير المؤمنين أن يفيدنيه ! قال : القاثم الذى يَبْزِل بعد الأكل [1] ويقثم الأشياء يأخذها ويثلمها

ولولا خوف الإطالة لأتينا بكثير من أخباره العجيبة فى العلم والأدب واللغة والأحاديث النبوية التى رويت من طريقه .

أخلاقه وعقله :

كان المنصور من أحزم الناس وأضبطهم لأمر وأسدهم لخال : اضطرب عليه الملك أول ولايته من أعاظم دعاة الدولة وفيهم أبو مسلم ، ومن أهل بيته وأنكرهم عمه عبد الله بن على ، ومن العلويين وأولهم محمد وابراهيم ابنا عبد الله الحسن ، ومن ملوك الأطراف ورءوس العرب والخوارج وملوك الروم . فقمع الجميع بسياسته ودهائه ، متفردا غير غالب عليه أحد فى أمره ، وجر ذلك إلى سفك دماء كثيرة . وكان يقول فى ذلك : الملوك ثلاثة : معاوية، وكفاه زيادُه ، وعبد الملك، وكفاه حجّاجه ، وأنا ولا كافى لى . إلا أنه كان مع هذا لا يأخذه الغرور عن أن ينصف من هو أكيس منه : قال لأصحابه يوما : أخبرونى عن صقر قريش

---

(١) أى أن القثم معدول عن القاثم ، وهو العطاء الذى يزيد الضيفان فائدة أخرى بعد الطعام .

من هو ؟ قالوا : أمير المؤمنين الذى راض الملك ، وسكن الزلازل ، وحسم الأدواء، وأباد الأعداء قال : ماصنعتم شيئاً . قالوا : فمعاوية. قال : ولاهذا . قالوا : فعبدالملك ابن مروان . قال : ولاهذا . قالوا : فمن ياأمير المؤمنين؟ قال : عبدالرحمن بن معاوية الذى عبر البحر ، وقطع القفر ، ودخل بلدا أعجميا مفردا ، فمصّر الأمصار ، وجند الأجناد ، ودوّن الدواوين ، وأقام ملكا بعد انقطاعه بحسن تدبيره وشدة شكيمته ؛ إن معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان وذللا له صعبه ، وعبد الملك ببيعة تقدم له عَقْدُها ، وأمير المؤمنين بطلب غيره واجتماع شيعته ، وعبدالرحمن منفرد بنفسه ، مؤيد برأيه ، مستصحَب بعزمه .

وقال يزيد بن عمر بن هبيرة [١] : مارأيت رجلا قط فى حرب ولا سمعت به فى سلم أنكر ولا أمكر ولا أشد تيقظاً من المنصور ؛ لقد حصرنى تسعة أشهر ومعى فرسان العرب ، فجهدنا بكل الجهد أن ننال من عسكره شيئاً ، فما تهيأ لنا ، ولقد حصرني وما فى رأسى شعرة بيضاء ، فخرجت وما فى رأسى شعرة سوداء . وقال المنصور يوماً لأصحابه : إن هذا الملك أفضى إلى وأنا حتيك السن ، قد حلبت هذا الدهر أشطره ، وزاحمت المشاة فى الأسواق ، وشاهدتهم فى المواسم ، وغازيتهم فى المغازى ؛ فوالله ما أحب أن أزداد بهم خُبْراً ، على أنى أحب أن أعلم ما أحدثوا بعدى منذ تواريت عنهم بهذه الجدارات ، وتشاغلت عنهم بأمورهم ، مع أنى والله مالمت نفسى أن أكون قد أذكيت العيون عليهم حتى أتتنى أخبارهم وهم فى منازلهم .

جده واهتمامه :

وروى المؤرخون عن سلام الأبرش ، قال : كنت أخدم المنصور داخلا ، وكان من أحسن الناس خلقا مالم يخرج إلى الناس ، وأشد احتمالا لما يكون من عبث الصبيان ، فإذا لبس ثوبه أربدّ لونه ، واحمرت عيناه ، فيخرج منه مايكون ؛ وقال لى يوماً : يابنى إذا رأيتنى قد لبست ثيابى أو رجعت من مجلسى فلا يدنون منى منكم أحد مخافة أن أعزّه بشىء . قال : ولم ير فى دار المنصور لهو ولا شىء

(١) أى عقب انقضاض حصره فى حصن واسط

يشبه اللهو واللعب والعبث إلا مرة واحدة ؛ رؤى بعض أولاده ، وقد ركب راحلة ، وهو صبي ، وتنكب قوساً وهو فى هيئة الغلام الأعرابى بين جُوالقين فيهما مُقل ومساويك ، ومايهديه الأعراب . فعجب الناس من ذلك وأنكروه ، فعبر إلى المهدى بالرصافة ، فأهداه له فقبله ، وملأ الجوالقين دراهم فعاد بهما ، وعلم أنه ضرب من عبث الملوك . وسمِعَ مرة غلاماً يضرب بين الخدم بطنبور فأمر بكسره فى رأسه وباعه .

وكان شغل المنصور فى صدر نهاره الأمر والنهى والولايات والعزل وشحن الثغور والأطراف وأمن السبل والنظر فى الخراج والنفقات ومصلحة الرعية والتلطف بسكونهم وهديهم ، فإذا صلى العصر جلس لأهل بيته ، فإذا صلى العشاء الآخرة جلس ينظر فيما ورد من كتب الثغور والأطراف والآفاق وشاور سماره ، فإذا مضى ثلث الليل قام إلى فراشه وانصرف سماره ، فإذا مضى الثلث الثانى قام فتوضأ وصلى حتى يطلع الفجر ، ثم يخرج فيصلى بالناس ، ثم يدخل فى إيوانه .

بخله وكرمه :

كان أبو جعفر شديد البخل فى كل ما ليس فيه تأييد للملك ، شديد الكريم على كل من يخشى منه ثائرة عليه . فبلغ من اقتصاده أن كان يرقع ثوبه ، ويصلى على البوارى ، وبلغ من الثانى أن وهب فى يوم واحد لجماعة من أهل بيته عشرة آلاف ألف .

ومما قيل فى سبب بخله ، أخرجه ابن عساكر بسنده : أن أبا جعفر المنصور كان يرحل فى طلب العلم قبل الخلافة ، فبينما هو يدخل منزلا من المنازل قبض عليه صاحب الرصد ، فقال : زن درهمين . قال : خلِّ عنى فإنى رجل من بنى هاشم . قال : زن درهمين . قال : خل عنى فإنى من بنى عم رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : زن درهمين . قال : خل عنى فإنى رجل قار لكتاب الله . قال : زن درهمين . قال : خل عنى فإنى رجل عالم بالفقه والفرائض ! قال : زن درهمين . فلما أعياه أمره وزن الدرهمين ، فرجع ولزم جمع المال والتدقيق فيه . حتى لقب بأبى الدوانيق .

حلم وإنصاف :

كان المنصور مع شدة بطشه وجبروته شديد الحلم على كل ذى حق لا يمس بملكه ، كان يدخل عليه العباد والزهاد فيوسعونه أمراً ونهيا ، ويوجعونه إنكاراً عليه وتجبيهاً له ، فيبتدرهم بطرح مسائل صعبة من وجوه العلم والدين ليجيبوا عليها ، يريد بذلك أن يفضح جاهلهم ليبلى عذراً للإيقاع به ، فإذا أجابوه انكسر لهم ، وانماع جبروته أمامهم ، وعرض عليهم قضاءه أو العمل له ، أو بدرات الأموال ؛ فيمتنعون ويخرجون . وبلغ من إنصافه أن استعدى عليه الجمالون فى حجه ، فدعاه القاضى محمد بن عمران الطلحى قاضيه على المدينة إلى مجلس الحكم فحضر هو والربيع فلم يقم القاضى بل حل رداءه واحتبى به ثم دعا بالخصوم ، فوقف أمام القاضى معهم فادعوا . فقضى لهم على الخليفة ، فقال له المنصور : جزاك الله عن دينك أحسن الجزاء !

ونوادره فى مثل هذا كثيرة .

فصاحة وبلاغة :

لم يكن فى الجيل الأول من بنى العباس أبلغ من المنصور ، ولعل عمه داود ابن على كان يفوقه ، إلا أنه لم يعش فى سلطان الدولة إلا سنة فخفت صيته . وفى ذلك يقول إسحق بن عيسى : لم يكن أحد من بنى العباس يتكلم فيبلغ حاجته على البديهة غير المنصور ، وأخيه العباس بن محمد ، وعمهما داود بن على

ويشهد بصدق هذا الكلام ما رواه المؤرخون من غير وجه أنه خطب يوماً فقال :

الحمد لله أحمده ، وأستعينه وأومن به ، وأتوكل عليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له . فاعترضه رجل فقال : أيها الإنسان أذكرك من ذكرت به . فقال : مرحباً مرحباً ، لقد ذكرت جليلا ، وحذفت عظيما ، وسمعاً سمعاً لمن فهم عن الله وذكر به ، وأعوذ بالله أن أكون جباراً عنيداً أو تأخذنى العزة بالإثم ، لقد ضللت إذن وما أنا من المهتدين ، وأنت يا قائلها . فأحلف بالله ما الله أردت بها ، ولكن أن يقال : قام ، فقال ، فعوقب ، فصبر . وأهون بقائلها لو هممتُ ؛

واهتبلها ويلك إذ عفوت ، إياك وإياكم معاشر المسلمين وأختها ، فإن الحكمة علينا نزلت ، ومن عندنا فصلت ، فردوا الأمر إلى أهله توردوه موارده ، وتصدروه مصادره . ثم عاد إلى خطبته ، فقال : وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . . . فكأنما يقرؤها من قرطاس .

المنصور وآداب اللغة

كثير من الناس من تكون حياتهم الأدبية مثالا واضحاً لحالة اللغة فى عصرهم ، ومرآة تنطبع فيها صورة البلاغة والأفكار والتصورات والعلوم والفنون التى وسعتها اللغة فى جيلهم ، وليس كثيراً من تكون حياتهم مبدأ لأحداث جديدة فيها : كدخول أغراض جديدة فى الكلام ، وانتحاء طرق مختلفة فى التعبير لفظاً أو أسلوباً ، وتحويل مجرى الأفكار والتصورات من طريق إلى طريق ، وانتحال علوم جديدة يتسع لها بالضرورة نطاق اللغة ، وتتعدد مواردها ومصادرها ، ويكثر عدد روادها ومنتجعى سيبها . ومن هؤلاء الملأ أبو جعفر وابنه المهدى وحفيده الرشيد وابن حفيده المأمون ؛ والثمرة المتخلفة فى بستانهم عبدالله بن المعتز ، ويشارك هؤلاء فى بعض الأمور دون بعض ، أمثال ابن المقفع والجاحظ والصابى وابن عباد وأشباههم ، ولكن أبا جعفر كان فرط الوراد على هذه الشرعة فالدولة دولة الرجل فهو الذى أثل عرشها ، ووطد أركانها وخضد أشواك الطامعين فيها ووضع نظامها الذى جرى عليه بنوه من بعده حتى غلبهم على أمرهم عبيدهم من الترك والديلم .

ولم يغب عنك ما ذكر من الحوادث التى حدثت فى اللغة بقيام هذه الدولة ؛ فإنه بإخماده نيران الفتن وتمصيره الأمصار وحمله الناس على نظام واحد وإعلانه التسوية بين الأعاجم والعرب فى كثير الأمور ـ أنعم بال الناس ورفه عليهم عيشهم ؛ فاستمرءوا العافية ، وصرفوا الأفكار إلى النظر فى العلوم واستنباط الصناعات والفنون ، إما رغبة فى حفظ العلم ورئياً للأدب ، وإما غضباً للسان العربى والدين الحنيف أن تستطيل عليهما العجمة والزندقة .

وكان لأبى جعفر أحسن البلاء فى توطئة هذه السبيل وسوق الناس إليها .

فحمل العلماء على تأليف الكتب ووضع العلوم وترجمة كتب الأوائل ؛ فأمر مالك بن أنس فى حجة له بوضع الموطأ ، وبعث له مع ابنه المهدى من قابل بخمسة آلاف دينار ثوابا له على ذلك

ولم يمض على ملكه سبع سنين حتى شرع العلماء فى سنة ١٤٣ فى تدوين الحديث والفقه والتفسير ، فصنف ابن جريج بمكة ، ومالك بالمدينة ، والأوزاعى بالشام ، وابن أبى عروبة وحماد بن سلمة وغيرهم بالبصرة ، ومَعْمر باليمن ، وسفيان الثورى بالكوفة ؛ وصنف ابن اسحاق المغازى ، وصنف أبو حنيفة الفقه والرأى ثم بعد يسير صنف هشيم وابن لهيعة ، ثم ابن المبارك وأبو يوسف وابن وهب وكثر تدوين العلم وتبويبه ، ودوّنت كتب العربية واللغة والتاريخ وأيام الناس ، وقبل هذا العصر كان الأئمة يتكلمون من حفظهم أو يروون العلم من صحف صحيحة غير مرتبة .

والمنصور أول خليفة قرب المنجمين وعمل بأحكام النجوم ، فكان ذلك بدءا للعناية بعلم الفلك ونقله إلى العربية ، وأول خليفة ترجمت له الكتب الأعجمية إلى العربية : ككتاب كليلة ودمنة واقليدس وكتب ارسطاطليس من المنطقيات وغيرها وترجم له كتاب المجسطى لبطليموس وكتب العدد وكثير من الكتب القديمة اليونانية والرومية والسريانية والفهلوية ، فزادت اللغة فنونا ووضع فيها اصطلاحات وأساليب علمية جديدة

هذا من وجهته العامة ، أما من وجهته الخاصة فقد كان المنصور رأسا من رءوس البلغاء ، ترك لخلفه من خطبه وكتب عهوده ومراسلاته وشروط أمانه وتوثيقاته - ماصار بعده مراسم تحتذيها الخطباء والكتاب ، وقوانين ترعاها الحكام وتلك منزلته من اللغة عامة ، ومن النثر خاصة ، أما الشعر فكان قليل القول فيه كما كان قليل الإثابة عليه ، ولم ترج عنده سوقه فى بغداد لقلة حاجة الدولة فى بدايتها إلا إلى الأمور الضرورية النافعة ، والشعر كسائر الفنون الجميلة كمالى ، ولذلك هاجر كثير من الشعراء من العراق إلى ولاة الأقاليم ، واستمر الحال مدة خلافته على ذلك حتى خلافة المهدى .

أحمد الإسكندرى

بين الحقيقة والخيال

للأستاذ عبد اللطيف المغربى

أخذنى ما يأخذ الناس أحيانا من هم طارق، وملل عارض، فنزعت إلى الخلاء ألتمس من مباهج الطبيعة، ومجالى الكون ما يعيد إلى النفس صفاءها، وجعلت أذرع الفضاء فى رفق وهوادة حتى ألقيت عصا التسيار تحت دوحة باسقة ذات أفنان مورقة؛ وهناك أرسلت الخيال من عقاله فأغار فى أودية من الخيال وأنجد، وألم بصور من عصور الأدب قد احتواها الزمان، وأبقى لنا منها آثاراً نتعلل بها فى وحشة الأيام التى تغزو القوى والضعيف، وتأتى على التليد والطريف، وإذا هو ظافر بقول القائل:

نام الخلى وما أحس رقادى ... والهم محتضر لدىَّ وسادى

من غير ماسقم ولكن شفنى ... هم أراه قد أصاب فؤادى

ومن الحوادث - لا أبالك - أننى ... ضربت على الأرض بالأسداد

لا أهتدى فيها لموضع تلعة ... بين العراق وبينْ أرض مراد

فانتفض عصفور قريب منى على تلك الدوحة انتفاضة، انقلب على أثرها ذا وجه مليح ولسان فصيح، كأحسن مايكون من الرجال، وطافت بمحياه إشراقة من الإعجاب والسرور بما سمع، ونشب بينى وبينه حوار طويل:

العصفور: طاب مساؤك أيها الضيف الكريم. لمن هذا الشعر الرصين، الذى يفيض به وجدان خصب، وفطرة سمحة، ويختال فى ثوب محكم متين، لاسفسفة فيه ولا فضول؟ إنه يشبه ماكان يرويه لنا آباؤنا الأقدمون، وماكان يأخذنا به مؤدبونا من روائع الفن القديم وغرره.

أنا: إن هذا الشعر للأسود بن يعفر النهشلى، وهو مطلع لقصيدة رائعة، كلها ذكريات تذيب القلب، وتصدع جوانب النفس، يكاد قارئها يحس حرارتها تتدفق إليه من ثنايا سطورها، ولا يلبث أن ينتظمه وقائلَها ذلك التيارُ الجارف

من العاطفة المتقدة ، واللوعة المشبوبة ؛ وفى الحق أنها مثل رائع لما كان عليه الشعر العربى من فطرة صافية ، ومنهج قويم ، وسنن موفق .

العصفور : ما أروع هذا البيان وأصفاه ! وأخفه على سمعى وأحلاه ! إنه يحلق بى فى جو عربى محض ، فأتذوق طعوماً من الفصاحة لاتشوبها عجمة ، ولا تكدرها هجنة ، وكأنى أستقبل به نسيم العربية الرقراق فى عصورها الزاهية ، وأشم عرف تلك الرياض الطبيعية التى انبسطت صحائفها على متون الربا والوهاد ، وانشعبت طرائقها بين الرمال الناصعة البيضاء ، والصخور الصماء ، لم تأخذها يد الصنعة بتحسين ولا تجميل ، ولم يفسدها تعمل الإنسان بمحاولة إخضاعها لأشكال هندسية من تثليث وتربيع وتخميس .

ولو قرنت هذا الشعر البليغ إلى بعض مانسمعه الآن من أصوات الأدب لرأيت عجبا ، ولهالك ذلك اللون القاتم المنتشر فى أفقه ، ولأفزعك ما يشيع فيه من ألوان وصور غريبة عما تألفه أذواقنا ، وترتاح إليه نفوسنا ، وتجيش به عواطفنا ، ويضطرب به وجداننا — إلا ما تراه من أقوال من عصمهم ربك ، وآتاهم فى البيان موهبة فذة ، وأدر عليهم أخلاف العربية ثرة صافية ، وقليل ماهم ؛ ولست أنسب هذا الحال إلا إلى مارزأنا به التجديد ، وما منيت به العربية من هيام أهلها بغيرها من اللغات الإفرنجية ، فتضاءل الأسلوب ، وزحمتنا المعانى الغريبة ، فأصبحنا فى شكول من ضروب الأدب نابية

وإنى لِلماء المخالط للقذى إذا كثرت وُرَّاده ـ لعيوف

أنا : لست أدرى ما يريبك أيها الناطق الفصيح من أمر التجديد . وهل الحياة إلا مراحل تسير فيها قوافل الأدب واللغة حتى تبلغ غايتها ، وما اللغة إلا حى قابل للنمو ، ولا بد لها من مسايرتها لأهلها ، ومواتاتها لمطالبهم ، وموافاتها لأحلامهم وأمانيهم .

ألم يأتك حديث الدولة العباسية بالعراق وما وقع فيها من تجديد وهدم وبناء وتعريب وترجمة ، وإفاضة فى علوم الطب والرياضة والفلسفة وما إليها — وقد ظهر أثر كل ذلك على أسلات ألسنة القوم وأقلامهم ، وبرزت له فى الأدب

ثمار يانعة لايستطيع مكابر إنكارها . فكيف تنكر علينا اليوم تجديدنا الحديث ، وهو فى هذا العصر شبيه بنظيره فى ذلك العصر القديم ؟

العصفور : هذا كلام له ما بعده . ولقد نظرت إلى المسألة من أحد وجوهها ؛ وذلك أن القوم فى الدولة العباسية واجهوا حياة صاخبة بثمرات الأمم المغلوبة ، من ثروة وقوة ولهو ومتعة وترف حسى وعقلى ، واستقبلوا حضارات الأمم الناهضة فى وقتها ، من فرس وهنود وإغريق ، فاستغلوا ذلك كله فى تنمية شعورهم وترقيق وجدانهم ، وقد هضموا كل ما اتصل بتفكيرهم من ثمار الأمم الأخرى حتى استحال إلى ما يشبه أن يكون غذاء عربياً فى لونه وطعمه ، فهم قد طبعوه على غرار تفكيرهم ، وصقلوه على نمط أساليبهم ، فبدا عربى المظهر حتى لا يكاد ينكره من لم يعرف أصله ، ولم يقف على أوله ؛ هذا إلى اعتزاز القوم بلغتهم ، وترفعهم بها عن مخالطة الأعجمى ، ومدارجة الغريب الجافى من المعنى والأسلوب مالم تهذب حواشيه على النمط العربى الأصيل .

أنا : إنى أيها المناظر الجليل قرم إلى إلمامة منك بالتجديد الذى طرأ على أدبنا وتقلبه ومعرفة صور منه ، لنفقه ماتقول ونتنزل على الحكم الذى تراه .

العصفور : سأتلو عليك نبأ منه . لقد اتصل الشرق بالغرب وكثرت وسائل الاتصال وجمت دواعيه منذ نصف قرن تقريباً ، فكثر العارفون باللغات الإفرنجية وكثرت البعثات المشرقية إلى الغرب فنهل أفرادها من معين الآداب الأجنبية ، ووقعوا على كثير من الأخيلة والحقائق والأنظمة الإفرنجية ، وفتنوا بحب هذه اللغات ونظروا إلى لغتهم العربية نظرة زهو وإعراض ، وزعموا أنها فقيرة فى معناها ومبناها ، فأحبوا أن يغزوها بما علموا وأن يشدوا فى ظلالها بذلك النغم الأعجمى ، وأن يصيحوا فى أعقابها بتلك الأساليب الإفرنجية ، وظنوا فى ذلك تقوية للعربية وتوسيعاً لأطرافها .

وقد بدأ التجديد فى الأدب يسير سيراً رقيقاً لا عنف فيه كأحوال عصوره الهادئة نحو الرقى والنهوض ، وشمنا له فى سماء الأدب العربى بروقاً صادقة ، وتذوقنا له طعوماً قريبة من المألوف فى أدبنا ؛ فلم ننكر من هذا التجديد شيئاً إلا بعض ألوان تدخل فى باب الشذوذ .

ولما وضعت الحرب العالمية أوزارها تملكت الناس نشوة الأمل والطرب، فانطلقت العقول من إسار الوهم والخوف إلى التوثب فى ساحات العمل والبناء والهدم، واستشرفت إلى أجواء جديدة من التفكير والتغيير فى الأنظمة والعادات والأخلاق، وطاف بالأدب العربى فى مصر من ذلك طائف عنيف، فقام الأدباء المجددون يتهمونه بالقصور فى أغراضه ومعانيه، والوقوف عند آمال الشاعر وحده، فأطلقوا له العنان فى مهب كل ريح، وأقحموه فى كل ما يخطر ببالهم، وجعلوه مطية لأحوال الاجتماع والتعبير عن خطرات الفكر فى العلم والفلسفة والفن والكيمياء.

وهكذا دفعوا به مكرهاً إلى هذه المآزق، وما دروا أن الشعر طائر سمح رقيق لا يطيب له التغريد إلا فى جو مشبع بالعاطفة والآمال والآلام، فإذا غذى بالفلسفة والرياضة والكيمياء، وأخضع لأساليب المنطق والتفكير الصحيح، فقد أودى.

وقد تأثر دعاة التجديد فى الأدب بما كان فى الغرب من ثورة فى أواخر القرن التاسع عشر على المذهب «الرومانتيكى» أى العاطفى الذى يتغنى فيه الفرد بآماله وآلامه، ويعنى فيه بالزخرف والخيال، فنهض مجددوه يدعون إلى أن يكون الأدب صورة صادقة للجماعة لا للفرد، وأن ينهج طريق الحقيقة والمنطق والتفكير الصحيح مع اليسر فى التعبير ومجانبة الزخرف، وكانت فرنسا وغيرها إذ ذاك مجالا للنضال بين أنصار المذهبين القديم والحديث؛ وترامت هذه الموجة إلى مصر فظهر الأدباء والمجددون ممن كرعوا من حياض الأدب الغربى ووقفوا على أنباء هذا التغيير فيه يحملون راية الجديد، ويدعون الناس إلى هجر القديم فى الأدب والتجافى عن الأسلوب المزخرف بالصناعة الموشى بألوان الخيال. ودعوا إلى الصدق فى القول والمنطق المستقيم المتزن فى زعمهم.

ولم تقف الدعوة عند حدود الأدب، فقد مست نواحى الحياة الاجتماعية وظهرت واضحة فى أزيائنا ولهونا ومتعنا، ولقد تسامت حتى وصلت إلى طلب التجديد فى الناحية الدينية، فاستمع إلى الشاعر جميل صدقى الزهاوى يقول:

لا تقبلوا فى الدين ما يروونه إلا إذا ما صح فى الأنظار
إن اليقين لفى الشهود جميعه والشك كل الشك فى الأخبار
انضوا القديم وبالجديد توشحوا حتام تختالون فى الأطمار؟
وتجردوا من نير كل خرافة خرفاء تلقى الرين في الأفكار
وتحرروا من قيد كل عقيدة سوداء ما فيها هدى للسارى

وأنا أكل إلى السامع تقدير ما فى هذه القطعة من الجرأة والتطرف. وما فيها من الأسلوب اللاذع، والدعوة إلى نبذ مالا يصح إلا فى النظر؛ وفى الدين أمور تسامت أن يزن العقل والنظر حكمتها لجلال موضوعها، وفيه غيبيات لا تنال معرفتها بالنظر، وهذا المذهب شبيه بمذهب بشار بن برد الذى لا يصدق ولا يؤمن إلا بما يحس؛ وهذه الأقوال وأمثالها اتخذها تكأة من أراد فى الدين إلحاداً تحت ستار التجديد والإصلاح.

ولعلك تصبو الآن إلى معرفة صور من التجديد غير المرغوب فيه؛ فمن ذلك:

(١) التجديد فى الأسلوب كقولهم: رأى متواضع، كلمة بريئة، الموت البنفسجى، الزهرة الفيلسوفة، أنحنى احتراماً لرأيك.

(٢) التجديد فى المعنى بإدخال معان وأخيلة غريبة عما تألفه أذواقنا ويجرى به عرفنا، ولكل أمة ذوقها الخاص بها فى فنونها؛ فإرغامها على قبول مالا تستسيغه أذواقها ضرب من العسف. وننقل إليك قطعة مترجمة عن الفرنسية من أغانى بليتيس، للشاعر النابه حسن كامل الصيرفى

قال لى: أقسمت لو تعلو على قنن الأجبال تكسوها الثلوج
موجة النهر الذى ينساب فى دعة ما بين هاتيك المروج
وإذا قدر للانسان أن ينثر الأمواج فى البحر بذورا
فإذا ها بعد حين زهرة تملأ الآفاق عطراً وعبيرا
وإذا حال ضياء الشمس فى وضح اليوم ظلاماً دامساً
لا صباح لا ضحى لا شىء من هذه الأشياء إلا طامسا

أو هوى البدر على العشب كما تسقط الأزهار عن هذى الغصون
بدداً للريح تلهو لهوها ببقاياه كما تلهو السنون
أى بليتيس - إذا ما وقعت هذه الأحداث فى هذا الوجود
حين ذا نصبح فى حل من الـــهجر والصد ونسيان العهود

الفكرة التى بنيت عليها القطعة - وهى أن يصبح الإنسان فى حل من هجر صديقه بإحدى الوسائل الأربع التى ساقها الشاعر - حسنة ، ولكن ضروبا من الخيال فيها لا نستسيغها : فارتفاع موجة النهر الوادع فوق قمم الجبال المكسوة بالثلوج خيال غير مألوف لنا ، وبذر الأمواج بذوراً تنبت بعد حين زهراً عطراً يملأ الآفاق شذاه من أغرب الخيال الذى لا يمت إلى خيالنا بصلة مطلقاً - ومثل هذه المعانى يشيع فى أجواء أدبنا ويتقادم به العهد فننسى نسبه ويصبح فى أدبنا أصيلا .

(٣) التجديد بالشعر المرسل : وهل بلغ مسامعك ذلك النوع من التجديد البغيض الذى يسمونه شعراً مرسلا ؟ وحقيقته التحرر من التزام قافية واحدة فى القصيدة ، فللشاعر أن يقول كل بيت بقافية مغايرة لماقبلها ، وهذا من أعجب ماسمعت وأى جمال يبقى للشعر إذا فقد رنين القافية الموسيقى ، وبالقافية المتحدة تهيم الأذن ثم تهيم وتلتقى فى نهاية كل بيت ، وتنتشر القلوب وتجتمع عند آخر كل صوت ، وإن شعراً يخلو من التزام القافية ، لشعر فاتر قد فقد التشاكل والصلة بين أطرافه ، وخليق بمثل هذا الشعر ألا تتقبله النفوس ، ولا تحن إليه الآذان ؛ ولأمثال هؤلاء الداعين أن يقنعوا بالمصرّع من الأبيات المنوع القافية ، ففيه غناء كبير لهم إن كانوا يقصدون بلغتهم خيراً

أنا : أشكر لك أيها المحدث اللبق هذه الجولة المشكورة فى عالم الأدب ، وهذه الغيرة المحمودة على لغة العرب ؛ ولكن أتعلم الداعى الأول إلى هذه الطريقة البغيضة ؟

العصفور : أول من استحدث هذه الطريقة هو الشاعر جميل صدقى الزهاوى فقد بعث بقصيدة من هذا النوع إلى مجلة الهلال فى سنة ١٩٢٧ يدعو فيها إلى طريقته وقدم لها بمقدمة طويلة يبرر فيها رأيه لا أستطيع أن أتلو عليك شيئاً منها

ولكنى أستطيع أن أتلو عليك بعض أبيات من القصيدة على بغضى لها وإرغامى ذاكرتى على تعليق بعض أبياتها ، قال :

كأنى من قبرى انبعثت وقد مضى — على من الأعوام فى جوفه ألف
فألفيت أن الأرض قد حال وجهها — بصنع الألى كانوا عليها يعيشونا
وأن عليها البر قد ضاق عرضه — بهم فبنوا فوق البحار المساكنا
ولكنما الشمس المنيرة لم تزل — تضىء نهاراً ثم تغرب فى الليل
وكانت بعينىّ السماء كعهدها — منمقة فى الليل بالأنجم الزهر
وألفيت أن الناس فيها تغيروا — فما أحد منهم كمن كنت ألقاه

وأنت يا سيدى الجليس ترى الجفوة واضحة بين هذه الأبيات ، و نها قد أرغمت على التجاور إرغاماً لفقدها الصلة بين أبياتها وهى القافية شكال القصيدة ، فبدا الشعر سخيفاً مهلهلا لا تطرب له فى قليل ولا كثير .

أنا : ما الذى يروقك من التجديد إذاً ؟ حتى نعكف عليه وندع سواه جاهدين ؟

العصفور : يرضينى من التجديد التأثر بالمعانى الغربية واستساغتها وهضمها حتى تستحيل إلى لون عربى ملائم ، وتصقل على غرار تفكيرنا وخيالنا ، فلا يشعر السامع العربى النزعة ، أنه قد انتقل من جو عربى صحو إلى جو غربى غائم بعيد عن ذوقه وعرفه . وأن يقف التجديد فى الأسلوب عند حدود الأسلوب العربى وأصول اللغة المصطلح عليها كما كان يفعل آباؤنا الأقدمون ، وليعلم أدباؤنا المجددون ان للعقل السامى والعقل الآرى خصائصهما . فمزج ثمار أحدهما بالآخر أو نقل أحدهما إلى مميزات الآخر عدوان على الطبيعة والفطرة .

ولست أذهب إلى نكران أثر التجديد فى الأدب العربى ، فهو قد استفاد بعض القوة والانتعاش من المعانى والتفكير القريب من تفكيرنا فى النزعة ، وخاصة أدب القصة ؛ وإن كنت أشعر أنه قد خسر كثيراً من ناحية الأسلوب الإفرنجى والمعانى النابية عن ذوقنا . فليتدبر الأدباء المجد دون هذا ، وليرفقوا بلغتهم ، وليحرصوا على جمالها وصفائها ، ولنا فى القدامى الميامين والقروم البهاليل حراس العربية الأكفاء ، وقوامها الأمناء من رجال دار العلوم ،

والأزهر ما يضمن بقاءها فى جملتها صافية الديباجة عربية الطلعة ، ما أشرقت شمس أو غرب نجم .

أنا : لقد أهديت إلى صنيعاً لست أنساه بعلاج موضوع له فى حياة العربية أثر جليل ، فجزاك الله عنها وعن أهلها خير الجزاء ؛ وانى لشاكر لك الشكر كله ، طاب عيشك وصفا وقتك ، وبلغت من الأمل ماتريد .

العصفور : لقد أتحت لى أيها الأخ فرصة سعيدة تحدثت فيها إليك فأطلقت النفس على صفائها ، وماشىء أحب إلى النفس من تحدث الأديب إلى الأديب

فما بقيت من اللذات إلا محادثة الرجال ذوى العقول

وقد وقعت هذه الزيارة المباركة من نفسى أيمن وقع ، فاحتفظت بها لك فى أجل منزلة من منازل الذكريات الخالدة .

عليك سلام الله ماذر شارق وغرد فى الأيك الحمام المغرد

ثم انطلق مغرداً فى سماء الحرية ؟

عبد اللطيف المغربى



الأسلوب الكتابى

فى العصر العباسى الثانى (٢٣٢ – ٣٣٤)

وكيف تهيأ للجاحظ أن يضع أساسه ويحمل لواءه

للأستاذ السباعى بيومى



منذ عهد الرشيد فى أواخر العصر العباسى الأول قد أخذ العمران يستبحر، وعم الرخاء ونشرت الرفاهية أجنحتها على ذوى اليسار فنعموا بنعيم الحياة وذاقوا حلاوة الوجود وصار فى متناول الناس التمتع بما كان للفرس من متعات وأصبح كل إنسان لا يرضى بما هو فيه بغير الكثير. فكان من الطبعى وقد فاضت الفارسية على العربية إذ ذاك بكل ما هو معروف عنها من بسط وإطناب، أن يشب الكتاب الناشئون فى آخر هذا العصر نشأة طفولة على غير ما عليه كتابه من ترسل وإيجاز، فهم لابد مطنبون فيما يكتبون بجعل أثواب المعانى فضفاضة ذات ذيول؛ ولن يكون هذا بغير الإكثار من المفردات والجمل على سبيل الترادف والازدواج. وقد شاءت الأقدار أن تحبو هذه الفترة بطفل موهوب ينشأ فيها نشأة الكتاب فلا تكاد تنقضى حتى يستوى فى العصر الثانى واضع أساس الأسلوب الجديد وحامل لوائه أمام الكتاب؛ ذلكم هو أبو عثمان الجاحظ عمرو ابن بحر بن محبوب الكنانى؛ وإليك كلمة عنه تبين كيف هيأته البيئة الخاصة فيما قدر له، وكيف غير مجرى الأسلوب الكتابى فى البيئة العامة حتى كان فى العصر الثانى غير ما كان عليه فى سابقه من عدة وجوه.

ولد الجاحظ بالبصرة سنة ستين ومائة وهى على ما علمت عنها – فيما ذكرنا عن ابن المقفع بمقالنا الأول (١) – عش الأدب؛ فأدرك طبقة الأصمعى وأبى عبيدة وأبى زيد وأخذ عنهم ما خصوا به من أدب وفكاهة وغريب، ولازم أبا اسحق إبراهيم بن سيار النظام المتكلم المعتزلى المعروف فتخرج عليه فى علم

(١) العدد الثانى من السنة الثالثة، صحيفة دار العلوم

الكلام ، ثم خالط أعلام الكتابة والترجمة فبرع فى الإنشاء ، وقرأ كل ماترجم على عهد المنصور والبرامكة والرشيد ؛ وبهذا جميعه خرج أديبا فكها عالما فيلسوفا وأقام بالبصرة إقامة مغرم بالكتب لايدع كتابا حتى يستوفيه قراءة وفهما وكثيراً ما كان يكترى دكاكين الوراقين فيقيم فيها ينظر ويتثبت ؛ وإن فيما أودعه وصف الكتاب المعروف عنه لأنصع دليل على ما كان للكتب فى نفسه من منزلة ، وعلى تنوع ما جناه عنها من فائدة . ولقد كان محبوبا لدى ولاة البصرة وأعيانها عربا وفرسا ، لا يزال يتحفهم بما يصنف من كتب ورسائل فى شتى العلوم والفنون ، ولا يزالون يتحفونه بجزيل العطايا وسنى الصلات ، حتى ذاع صيته فى بغداد وسُرَّ من رأى ، فكان ينتجع إليهما الخلفاء والوزراء والعظماء ، حتى استخدمه محمد بن عبد الملك الزيات فى كتابة الديوان ، ولما قتل ابن الزيات عاد إلى البصرة فأقام فيها كما كان عالما مصنفا وأديبا كاتبا ، إلى أن فلج وبقى بالفالج طويلا ؛ ومع هذا لم ينقطع عما نصب نفسه له ، وطالما حمل مفلوجا إلى بغداد ليستمتع به ؛ وفى إحدى هذه الحملات توفى بها سنة خمس وخمسين ومائتين .

بهذه الكفاية الممتعة فى العلم والفلسفة والأدب والكتابة زاول الجاحظ تدبيج الكتب والرسائل ، فكان أعجوبة الزمان وينبوع الافتنان ؛ إن ذكر أدب العلماء فهو آدبهم ، وإن ذكر علم الأدباء فهو أعلمهم ، وقد استخلص مما قرأ علوماً جمة شارك بها أهل كل علم ، وآداباً ممتعة ضرب فيها بكل سهم ، فكان واسع الاطلاع ، لطيف البحث ، طيب الفكاهة ، مخترعاً لدقيق المعانى ، صواغاً لبليغ العبارات ؛ إذا صنف ألف بين الأشتات ، وإذا كتب استنزل العصم من العبارات ؛ صادرا فى تصنيفه وكتابته عن نفس جامعة بين المتناقضات . فكان راوية متكلما ، وفيلسوفا مسامراً ؛ وأديباً مؤرخاً ، وشاعراً عالماً ؛ كما كان دارساً أحوال الحيوان والنبات والجماد ؛ دراسته أحوال الناس والجماعات ، وهو فى كل ذلك الكاتب المكثار الذى لا يدرك له شأو ولا يشق له غبار ، حتى لكأنه المعنى بقول أبى نواس :

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد

ولهذا عد أحد أفذاذ العصور وإحدى حجج اللسان ، قال ابن العميد يصف كتبه : « كتب الجاحظ تعلم العقل أولا والأدب ثانياً . » وقال المسعودى يصفها

أيضاً على تشيعه وعثمانية الجاحظ : « ... وكتب الجاحظ مع انحرافه تجلو صدأ الأذهان ، وتكشف واضح البرهان ؛ لأنه نظمها أحسن نظم ، ورصفها أحسن رصف ، وكساها من كلامه أجزل لفظ ، وكان إذا تخوف ملل القارىء وسآمة السامع ، خرج من جد إلى هزل ، ومن حكمة بليغة إلى نادرة طريفة ؛ وله كتب حسان ، منها كتاب البيان والتبيين ، وهو أشرفها ؛ لأنه جمع فيه من المنثور والمنظوم وغرر الأشعار ومستحسن الأخبار وبليغ الخطب مالو اقتصر عليه مقتصر لاكتفى ، وكتاب الحيوان وكتاب الطفيليين والبخلاء ؛ وسائر كتبه فى نهاية الكمال ، مالم يقصد منها إلى منصب أو إلى دفع حق ؛ ولا يعلم ممن سلف وخلف من المعتزلة أفصح منه . »

فلا جرم وهذه حال الجاحظ أن يكون إمام الكتاب فى العصر العباسى الثانى ، وأن تقوم ميزة هذا العصر بما سن له - على الازدواج والإطناب ، كما قامت ميزة العصر الأول بما سن ابن المقفع - على الترسل والإيجاز ؛ وإن نظرة إلى ماخلف الجاحظ من مأثور لتريك بأجلى وضوح قدرته على المزاوجة والترادف وإتباع الشىء بمثله والقرين بقرنه فى فقرات يغلب أن تكون قصيرات وتتعدد للمعنى الواحد فى ابتداعٍ مستحدث وابتكار ليس له فيما سبق مثيل ؛ وها نحن أولاء ناقلون هنا شيئاً يسيراً مما كتب فى رسالة الحسد ، مسبوقاً بما قال ابن المقفع إمام العصر الأول فيه ، حتى يتم للموازنة اتحاد الموضوع :

قال ابن المقفع فى الأدب الكبير: « ليكن مماتصرف به الأذى والعذاب عن نفسك ألا تكون حسوداً ، فإن الحسد خلق لئيم ، ومن لؤمه أنه يوكل بالأدنى فالأدنى من الأقارب والأكفاء الخلطاء ؛ فليكن ماتقابل به من الحسد أن تعلم أن خير ماتكون حين تكون مع من هو خير منك ، وأن غنما لك أن يكون عشيرك وخليطك أفضل منك فى العلم فتقبس من علمه ، وأفضل منك فى الجاه فتصيب حاجتك بجاهه ، وأفضل منك فى الدين فيزداد صلاحك بصلاحه ؛ وليكن ماتنظر فيه من أمر عدوك وحاسدك أن تعلم أنه لاينفعك أن تخبر عدوك أنك له عدو فتنذره نفسك وتؤذنه بحربك قبل الإعداد والفرصة فتحمله على التسلح لك وتوقد ناره عليك . »

وقال الجاحظ من رسالة الحسد : « وهب الله لك السلامة ، وأدام لك الكرامة ، ورزقك الاستقامة ، ودفع عنك الندامة . كتبت إلى أكرمك الله تسألنى عن الحسد ماهو ؟ ومن أين هو ؟ وما دلائله وأفعاله ؟ وكيف تفرقت أموره وأحوله ؟ وبم يعرف ظاهره ومكتومه ؟ ولم صار فى العلماء أكثر منه فى الجهلاء ؟ ولم كثر فى الأقرباء وقل فى البعداء ؟ وكيف دب فى الصالحين أكثر منه فى الفاسقين ؟ وكيف خص به الجيران من جميع الاوطان ...؟ » ثم أخذ يفصل فى الإجابة عما سأل عنه حتى سلخ اثنى عشرة صفحة قال فى آخرها : « وما أرى السلامة الا فى قطع الحاسد ، ولا السرور إلا فى افتقاد وجهه ، ولا الراحة إلا فى صرم مداراته ، ولا الربح إلا فى ترك مصافاته ؛ فإذا فعلت ذلك فكل هنيئاً واشرب مريئاً ونم رضياً وعش فى السرور ملياً ، ونحن نسأل الله الجليل أن يصفى كدر قلوبنا ، ويجنبنا وإياك دناءة الأخلاق ، ويرزقنا وإياك حسن الألفة والاتفاق . أحسن الله توفيقك والسلام . »

على هذا النحو من المزاوجة الكثيرة الفقرات مع تقصيرها غالباً لملاءمة القصر للزّواج ـ كان الجاحظ يكتب عن ذهن صفى وطبع رخى ، فيطنب ماشاء له الإطناب حتى فى القصير من رسائله ما لم يتعمد المساواة كما فى تهنئة الفتح بن خاقان يوم عيد أو الإيجاز كما فى كتابه يستنجز مماطلا ، فإن القلة كما قلنا فى مقالنا الأول لاتأبى الإطناب ، كما لاتابى الكثرة الإيجاز ؛ وهذه رسالة له فى ثلاثة أسطر ولكنها من الإطناب ، قال يقبح نتيجة الحرمان ويحض على الإعطاء : « أما بعد فما أقبح الأحدوثة من مستمنح حرمته ، وطالب حاجة رددته ، ومثابر حجبته ، ومنبسط إليك قبضته ؛ ومقبل عليك بعنايته لويت عنه ؛ فتثبت فى ذلك ولا تطع كل حلاف مهين ، هماز مشاء بنميم . » هذا ولم يكن موضوع الرسالة مهما تجافى عن الأدب والفن ولج فى السيرة والعلم ، ليقف بالجاحظ دون تلك الطريقة الفذة أو يصرفه عن تناولها ، اسمع إليه يقول من تاريخ قريش : « قد علم الناس كيف كرم قريش وسخاؤها ، وكيف عقولها ودهاؤها ، وكيف رأيها وذكاؤها ، وكيف سياستها وتدبيرها ، وكيف إيجازها وتحسيرها ، وكيف رجاحة أحلامها إذا خف الحليم ، وحدة أذهانها إذا كل الحديد ؛ وكيف صبرها عند اللقاء ، وثباتها فى

اللأواء، وكيف وفاؤها إذا استحسن الغدر، وكيف جودها إذا حب المال، وكيف ذكرها لأحاديث غد، وقلة صدورها عن جهة القصد، وكيف إقرارها بالحق وصبرها عليه، وكيف وصفها له ودعاؤها إليه. وكيف سماحة أخلاقها، وصونها لأعراضها، وكيف وصلوا قديمهم بحديثهم، وطريفهم بتليدهم، وكيف أشبه علانيتهم سرهم، وقولهم فعلهم؟ وهل سلامة صدر أحدهم إلا على قدر بعد غديره؟ وهل غفلته إلا فى صدق ظنه؟ وهل ظنه إلا كيقين غيره؟» واسمع إليه يقول فى رسم الخطة المثلى لمن يقرأ الكتب فيما يجب أن يكون عليه إزاء المعانى والألفاظ: «ومن قرأ كتب البلغاء وتصفح دواوين الحكماء ليستفيد المعانى، فهو على سبيل الصواب؛ ومن نظر فيها ليستفيد الألفاظ فهو على سبيل الخطأ، والخسران هاهنا فى وزن الربح هناك، لأن من كانت غايته انتزاع الألفاظ حمله الحرص عليها والاستئثار بها إلى أن يستعملها قبل وقتها، ويضعها فى غير مكانها؛ ولذلك قال بعض الشعراء لصاحبه: أنا أشعر منك. فلما قال له: ولِمَ ذاك؟ قال: لأنى أقول البيت وأخاه وأنت تقول البيت وابن عمه. وإنما هى رياضة وسياحة. وسماع الألفاظ ضار ونافع؛ فالوجه النافع أن تدور فى مسامعه وتغيب فى قلبه وتخيم فى صدره، فإذا طال مكثها تناكحت ثم تلاقحت وكانت نتيجتها أكرم نتيجه وثمرتها أطيب ثمرة لأنها حينئذ تخرج غير مسترقه ولا مختلسة ولا مغتصبة ولا دالة عن فقر، إذ لم يكن القصد إلى شىء بعينه والاعتماد عليه دون غيره؛ وبين اللفظ إذا عشش فى الصدر ثم باض ثم فرخ ثم نهض، وبين أن يكون اعتسافاً واغتصاباً - فرق بيّن، ومتى اتكل صاحب البلاغة على التهويش والوكال، وعلى السرقة والاحتيال، لم ينل طائلا، وشق عليه النزوع، واستولى عليه الهواء، واستهلكه سوء العادة. والوجه الضار أن يحفظ ألفاظاً بأعيانها من كتاب بعينه أو من لفظ رجل، ثم يريّد أن يعد لتلك الألفاظ قسمها من المعانى؛ فهذا لا يكون إلا فقيراً بخيلا وخائفاً سروقا. ولا يكون إلا مستكرهاً لألفاظه، متكلفاً لمعانيه، مضطرب التأليف، منقطع النظام، فإذا مر كلامه بنقاد الألفاظ وجهابذة المعانى استخفوا عقله وبهرجوا علمه.»

وقد اقتدى بالجاحظ فى هذا الأسلوب كتاب عصره الذين تربوا فى

عصر المأمون فجمعوا إلى الآداب العربية الآداب الدخيلة تامة الابنى والاستواء بما استبحر من آداب الغرب والهنود، وبما أعيد نقله وفقاً على أصله من فلسفة اليونان: كالصولى، وابن الزيات، والحسن وسليمان ابنى وهب، وسعيد بن حميد، واحمد بن اسرائيل، وغيرهم ممن كتبوا للمعتصم والواثق والمتوكل، وجاوزوهم إلى المنتصر والمستعين والمعتز والمهتدى والمعتمد، وهم رجال الطبقة الأولى فى العصر الثانى؛ وقد أعقبتهم طبقة ثانية منها عبد الله بن سليمان بن وهب، وأبو العباس بن ثوابة، وأبو الحسن على بن الفرات، وعلى بن الجراح، وغيرهم ممن كتبوا بعد المعتمد للمعتضد والمكتفى والمقتدر؛ وأعقب هؤلاء طبقة ثالثة منها الحسين بن عبيدالله بن سليمان بن وهب، وأبو الفضل جعفر ابن الفرات، وأبو على بن مقلة، وغيرهم ممن كتبوا بعد المقتدر للقاهر والراضى والمتقى والمستكفى الذى انتهى على أيامه العصر الثانى بدخول بنى بويه إلى بغداد. فكل هؤلاء كانوا للجاحظ فى طريقته محتذين، ولأسلوبه مترسمين، فيما يكتبون من إخوانيات؛ وكذلك كانوا فيما يكتبون من رسائل مطولة ومصنفات. هذا حمزة الأصفهانى جامع ديوان أبى نواس يقول فى مقدمة هذا الديوان: «سألتنى أبقاك الله وأعلى قدرك وبلغك أقصى أملك وزادك من أفضل ماخولك وأحسن ما منحك ولا أعدمك جميل ما عودك – أن أصرف لك عنايتى إلى عمل مجموع من شعر أبى نواس مشتمل على كل أشعاره وجل أخباره، وقد أسعفتك أيدك الله بطلبتك، وأجبتك إلى ملتمسك.» إلى آخر ماقال على هذا النمط الذى ابتدأه بالدعاء كما كان يبتدىء الجاحظ، وعاد يكرر الدعاء فى ثنايا ما يقول كما كان يكرر. وهذا ابن قتيبة يتأثر الجاحظ فيما خلف من مصنفات جاءت فى الأسلوب على نحو ما كان للجاحظ من مؤلفات، وستقرأ نبذة منها آخر المقال.

وكما أوحى العصر الأول إلى كتابه أن يحمدوا ويحمد لهم الإيجاز، فقد أوحى هذا العصر الثانى إلى رجاله أن يكرروا ويطنبوا، اعتقاداً منهم أن فى التكرار على أيامهم قوة بلاغ للمعنى وشدة تأثير فى النفس، ولقد غلوا فى هذا الاعتقاد حتى أوصوا به، طالبين الحيدة عما كان شائعاً فى العصور قبلهم من إيجاز؛ قال ابن قتيبة فى أدب الكاتب: «ولو كتب كاتب إلى أهل بلد فى الدعاء إلى الطاعة والتحذير من المعصية كتاب يزيد بن الوليد إلى مروان حين بلغه عنه تلكؤه فى بيعته:

أما بعد فإنى أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى ، فاعتمد على أيهما شئت . لم يعمل هذا الكلام فى أنفسها عمله فى نفس مروان ؛ ولكن الصواب أن يطيل ويكرر ، ويعيد ويبدى ، ويحذر وينذر . » ونحن نقول وبهذا لم تعد استفادتهم من الفارسية منحازة إلى جانب المعانى أكثر من انحيازها إلى جانب الألفاظ كما كانت لدى أولئكم الأسلاف ، وإنما صارت فى ناحية اللفظ والمعنى سواء .

ولا يفوتنا قبل إنهاء المقال أن نشير إلى أن ما حدث بهذا العصر من حيدة ذوى الأمر - لجهلهم - عن تشجيع العلماء والكتاب ، ومن انصراف الناس إلى العلوم العقلية أكثر من علوم اللسان ، ثم ما كان من إهمال رجالات العرب وتهوين مالهم من كتابات - لا يفوتنا أن نشير إلى أن ذلك جميعه - قد أصاب الأدب والأدباء فأثر فى صناعة الانشاء حتى ظهر الضعف فى كتابات الكتاب ومن أجل هذا وضع ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ كتابه أدب الكاتب وكان مما كتب فى مقدمته أن قال : « أما بعد فإنى رأيت أكثر أهل زماننا هذا عن سبيل الأدب ناكبين ، ومن اسمه متطيرين ، ولأهله كارهين . أما الناشىء منهم فراغب عن التعلم ، والشادى تارك للازدياد ، والمتأدب فى عنفوان الشباب ناس أو متناس ليدخل فى جملة المجدودين ويخرج عن جملة المحدودين ، فالعلماء مغمورون وبكثرة الجهل مقموعون حين هوى نجم الخير ، وكسدت سوق البر ، وبارت بضائع أهله ، وصار العلم عارا على صاحبه ، والفضل نقصاً ، وأموال الملوك وقفاً على النفوس ، والجاه الذى هو زكاة الشرف يباع بيع الخلق ، وآضت المروءات فى زخارف النجد وتشييد البنيان ، ولذات النفوس فى اصطفاف المزاهر ومعاطاة الندمان ، ونبذت الصنائع ، وجهل قدر المعروف ، وماتت الخواطر ، وسقطت همم النفوس وزهد فى لسان الصدق وعقد الملكوت ؛ فأبعد غايات كاتبنا فى كتابته أن يكون حسن الخط قويم الحروف ، وأعلى منازل أديبنا أن يقول من الشعر أبياتاً فى مدح قينة أو وصف كاس - إلى أن قال - فإنى رأيت كثيراً من كتاب أهل زماننا كسائر أهله قد استطابوا الدعة ، واستوطئوا مركب العجز ، وأعفوا أنفسهم من كد النظر ، وقلوبهم من تعب التفكير ، حين نالوا الدرك بغير سبب ، وبلغوا البغية بغير آلة »

من أدب النهضة :

القصيدة الوطنيـــة الكبرى

فى مدح المرحوم سعد زغلول باشا

على أثر عودته من منفاه سنة ١٩٢٣

للشاعر محمود محمد ناصف

المدرس بمدرسة عبد العزيز

« كان لنهضتنا القومية أثر واضح فى الأدب العربى ؛ فقد جرت أقلام الكتاب بكثير من المقالات الرائعة ، وفاضت عاطفة الشعراء بكثير من الشعر الرصين ، تناول هؤلاء وأولئك بشعرهم ونثرهم جهات النهضة القومية ، لا سيما زعماؤها وأصحاب الرأى فيها والأحداث العظيمة التى مرت بالأمة فى خلالها . ولقد كان الزعيم الخالد الذكر ، المغفور له سعد زغلول باشا مصدر الوحى لشعرائنا الأفذاذ ، فلقد تغنوا بمدحه فى قصائد بارعة تعد من أمهات القصائد فى الشعر العربى الحديث ؛ ومن بين الشعراء الذين تناولوا سعد باشا بالمدح الأستاذ محمود محمد ناصف الذى ننشر له القصيدة التالية التى قالها وأنشدها عند عودة الزعيم الخالد من منفاه . »

أحسنَ الناسُ فى الزمان المقاله	مذ توليتـــه فأصلحت حالَـه
يبعث الله كل دهـر إماما	يصلح الناس بعـد عهد الرساله
يبعث الروح فى النفوس فتحيا	فطنةُ الرشد بعـد موت الضلاله
وإذا الله شاء أمـــرا عظيما	قبـــل إنجازه يُعَـــدُّ رجاله

٭٭٭

صِحتَ بالشرق صيحة لِصداها	زُلزل الغـــرب كله زلزالَـه
وكشفت الغطاء عن أعين النا	س ، إذا هم على هـدى وَدِلاله
ومضت مصر فى نزال عـــدو	تَرهب الارضُ حولَـه ونزاله
فهو فوق الأنداد خيلا ورجلا	وهو فى الختل ما أشد مِحالَـه

فحملنا عليه بالحق حتى زلزل الحق خيله ورجاله
عُدة الحق منه فيه ، فمهما صُلْتَ بالحق صنته لا محاله
يمكث الحق فى القرار ، وتمضى جولة المبطلين مرّ الخياله
أبلغُ المعجزاتِ أن يهزم العز ل كميا يهز فيهم نصاله
يهزم العزل من تفزع للعز ل فليس الأنداد تقلق باله
معجزات لمصر لا تتأتى من سواها ، فمصر مهد النباله
وهى أعيا قديمُها العلمَ والعقلَ ويمحو حديثُها الاستحاله

***

ليس سعد قد رام أمرا مروما بل هو الدهر قد أراد انتقاله
قام بالدهر وحده مستخفا ذلك الحملَ لم يحلوا عقاله
كيف يُجزى صنيعُ من فل خصما ضاق (غليومُ) ذو الجيوش حياله
عز غليوم بالحديد وأما درع سعد فليس إلا نضاله

***

ليت أعقابنا يحسون ماذا كلف المخلصين قرضُ الحباله
لو يعى الآخِرون عن أوّليهم لا تقى الآخِرون عقبى الجهاله
يذهب العسر والمشقات تُنْسَى وكأن الرخاء أول حاله
يجمع المال بالعناء رشيد ثم يأتى السفيه يفسد ماله
ذاك داء العمران : لا يفطن الآ تى لجهد القديم فيما بنى له
لو حفظنا عن الأوائل حرفا ما ابتلينا بما نذوق وباله
تلك عقبى شقاقنا إذ أتاحت فُرقة الشعب للعدو احتلاله
ثم قمنا لدفعه فاختلفنا رب كل يبيت يخشى خياله
لم يكن له لدينا سوانا لو ثبتنا له لشد رحاله
سامنا الذلَّ خوفُنا الذلَّ حتى قد شربنا الهوان حتى الثماله

فاستعان العـدو منا علينا أوقـع البغضَ بيننا ؛ لا أباله !
فانقسمنا على المنافـع حتى أثـر البعض للمنافـع آله
صار كل يقول : نفسى ولو يهـلك غيرى سدى ، فمالى وماله ؟
شر ما يعبث العـداة بشعب أن يصيبوا عقوله وخلاله
فَيُرُوه من الفساد صلاحا ويروه من الضلال عـداله
ويروه الظلام نورا فيمشى فى ظلام وليس يدرى مآله
أفسدوا النفس والعقول ، فصرنا أمـة صورة ، وفى الحق آله

٭٭٭

هل ترى من يذود ذلك عنا فى خيار الأبطال أو فى الحثاله ؟
وفق الله - إذ تلطف بالنا س - حكيما فقلدوه الوكاله
ذاك سعد أعلى ذؤابة مصر وابن زغلول وهو نعم السلاله
أىّ وصف يختار سعد ؟ فهل ن بصيرا بالنجح فيما أنبرى له ؟
إذ رأى بالعدو - ما لا يرى النا س - ثغورا جرّت عليه انخذاله
لا أقول : اقتحمت مالست تدرى غبـه جرأة ؛ فتلك جهاله
تلك يا سعـد منك رميـة رام ؛ يعرف الندْبُ أين يرمى نباله
لو قضينا القرون نمشى الهوينى ما أصبنا من الزمان عـلاله
وثبـة وفقت بحكمة قرْم ليس يلقى على الزمان اتكاله

٭٭٭

كنتُ قبلا أقول : ما بال سعد لم يدون مؤلفا أو رساله ؟
فإذا الدهـر جاء يكتب عنه ثم يتلو على القـرون فعاله
يكتب الدهـر مُعْجَلا باختزال وهو يملى ولا يحس ملاله
عشت يا سعـد للأنام إماما كلما عشت زدت مصر جلاله

محمود محمد ناصف

في النقد الأدبي

العاطفــــة فى الأدب

مقاييسها النقدية

للأستاذ أحمد الشايب

— ١ —

أخذ على أحد القراء الكرام أنى لم أُشر إلى ماهيّة النقد الأدبى أو التعريف به ، . . وأنى أخذت أسير فى البحث كأن الناس قد فرغوا من عرفان النقد الأدبى ماهو ، ثم قال : أين المبادىء العشرة : الحد والموضوع ثم الثمرة ؟ !

وقد يكون هذا القارىء المستتر أوالساخر ، على حق فيما رأى ؛ فمن الواجب على الكاتب أن يصور للقراء موضوعه صورةً ما قبل أن يهجم عليه حتى يستطيعوا مسايرته ونقده أيضاً . . ولكنى ألاحظ فى هذا المأخذ حرصَ الناس الدائم على التعاريف والحدود التى تختصر العلوم والموضوعات فى كلمات قصيرة موجزة مهما تبلغ من البراعة البيانية فلن تنفع شيئاً فى تصور الأشياء كما يصورها الدرس وضرب الأمثال ، على أن حصول الطالب على تعاريف دقيقة من أصعب المآرب وأبعدها تحقيقاً ، وبخاصة فى العلوم النفسية والأدبية ومسائلها. ولا يزال الناس يستعملون كلمات : الشعر ، والنثر ، والجمال ، والحب ، والخيال ، ونحوها دون أن يتفقوا لها على معان واضحة محدودة . . حتى إنك لتجد الناس فى البيئة الواحدة يختلفون فى معنى الكلمة الواحدة ، كل يتصورها على حسب ثقافته وما يلابس حياته . . أليس الشعر عند قوم هو الكلام الموزون المقفى . . فى حين يراه غيرهم فناً جميلا أهون مافيه أو بعض مافيه . . هذه الأوزان والقوافى ؟ والحق أنى حين انصرفت عن تحديد النقد كنت مكتفياً بما يعرفه القراء من أن

النقد ليس إلا تعقب الآثار الفنية والعلمية والنظر فيها لبيان ماتحويه من وجوه الحسن والإتقان أو القبح والإهمال .

ومع ذلك فالنقد فى اللغة مصدر نقد بمعنى ميّز الدراهم أو غيرها كما فى المحيط ، والمراد تمييز جيدها وزائفها ، فإذا استعملنا هذا اللفظ فى باب الأدب كان معناه : تمييز الأدب الجيد من سواه ، وكان لنا أن نعرف النقد الأدبى بأنه تقدير النص الأدبى والحكم على درجته الفنية ، وليس من شك فى أن العمل الأول للنقد الأدبى إنما هو عمل فهم وإيضاح وتقدير دون عناية بالذم أو الثناء وأما مسألة الموازنة بين النصوص الأدبية ورجال الأدب فهى على قيمتها تعد فى الدرجة الثانية . وهناك معنى آخر للنقد ، هو العيب والقدح ، ففى النهاية لابن الأثير ، فى حديث أبى الدرداء : « إن نقدت الناس نقدوك » أى إن عبتهم واغتبتهم قابلوك بمثله ، وهو من قولهم : نقدت الجوزة أنقدها إذا ضربتها ؛ وكان الناس إلى عهد قريب يقصرون النقد على هذه الناحية من التجريح الأدبى ، أو التقريظ والإطراء ؛ وكان من آثار هذا الفهم نزعة رعناء اتجه فيها النقد إلى الأدباء دون الآداب ، ونشأت عنها علاقات مدخولة بين الناقد والمنقود ، فإن كانا صديقين كان الأدب مثالياً رائعاً ، وإلا فالويل للشاعر أو الأديب . . وصارت أسمى مواهب الناقد أن يكون ذكياً يحسن تعليل مايدعى للأدب من حسن إذا كان راضياً عن صاحبه ، وتوجيه ما يزعم من قبح إن كان ساخطاً ؛ لذلك حرص أصحاب النقد الأدبى فى كثير من مباحثهم أن يضعوا للنقد أصولا تقيه شر النزعات الشخصية وتطهر جوه من المجاملات الممقوتة التى تعد عاملا على فساد الأخلاق وانحطاط الآداب .

ولم يفت علماء النقد أن الذوق عنصر أصيل فى باب النقد الأدبى ، ولكن هذا الذوق ـ مع كونه ملكة ذاتية ـ يخضع لديهم فى تكوينه واستحالته لقوانين وأصول تقربه من الضبط والتحديد . والكلام كثير فى النقد : أعلم هو أم فن ؟ ولم يستطع أحد إبعاده عن دائرة الفن ، وإن احتال أنصار علميته على جعل قوانينه عامة مرنة ليس فيها تحديد دقيق ولا صراحة باتة .

ومهمة النقد الأدبى خطيرة من حيث غايتها ، فهى ليست أقل من توجيه الأدب والأدباء إلى الناحية التى يراها النقاد خيراً للفن ، وللمجتمع ، وللحياة جميعاً ، وما دام الأدب وسيلة فنية تتصل بالحياة مؤثرة ومتأثرة فستبقى معركة النقد قائمة تحاول الملاءمة بين الأدب والحياة ، وتشرع للكتاب والشعراء ماتراه أصلح للسمو بالأدب وبقرائه ، وتعين هؤلاء على فهم ما يقرءون .

والنقد من حيث وسيلته يعتمد فى أدنى درجاته على تحليل الأدب إلى عناصره التى أشرنا إليها سابقاً ، ثم نقد كل منها مفرداً ومع باقى العناصر ، وتكوين حكم عام هو درجة الأدب وقيمته الفنية الأخيرة .

— ٢ —

وقد بينا فى التعريف بالأدب أن العاطفة عنصره الأول ، فكان من الحق أيضاً أن نؤثرها بالدرس الأول راجين أن يكون فى هذا الإيجاز الشديد إشارات إلى هذه الخواص التى يجب أن تتوافر للعاطفة حتى يكون أدبها سامياً .

نريد بالعاطفة ما يقابل هذه الكلمة الإنجليزية Emotion ونحن نعلم أن هذه الترجمة ليست دقيقة فربما كانت كلمة انفعال أدق أداء وأوفى نقلا ، ولكنى آثرت هذه الكلمة ـ العاطفة ـ لشهرتها وجريانها على الألسنة والأقلام فى أثناء الدراسات الأدبية ، ويراد بها ما يملك النفس من فرح أو حزن ، أو حب أو بغض ، أو حماسة أو إعجاب حتى تفيض على الألسنة والأقلام نثراً محكما أو شعراً رائعاً هو فيض هذا الشعور وتنفس الروح الإنسانية عما آدها من ثقل العواطف وثورة الحس .

وفى العمدة لابن رشيق : « وقالوا قواعد الشعر أربع : الرغبه والرهبةوالطرب والغضب ، فمع الرغبة يكون المدح والشكر ، ومع الرهبة يكون الاعتذار والاستعطاف ، ومع الطرب يكون الشوق ورقة النسيب ، ومع الغضب يكون الهجاء والتوعد والعتاب الموجع . . . وقال عبد الملك بن مروان لأرطاة بن سهية : أتقول الشعر اليوم ؟ فقال : والله ما أطرب ولا أغضب ولا أرهب ولا أرغب ، وإنما يجىء الشعر عند إحداهن . » وقال دعبل فى كتابه : « من

أراد المديح فبالرغبة ، ومن أراد الهجاء فبالبغضاء ، ومن أراد التشبيب فبالشوق والعشق ، ومن أراد المعاتبة فبالاستبطاء . »

وإنما أوردت هذه الفقرات لغرضين : تاريخى وعلى ، فأولهما لبيان شىء يسير جداً عما ورد فى كتب المتقدمين متصلا بموضوعنا ، وكيف استطاع هؤلاء السابقون أن يلحظوا كثيراً من أصول النقد ومظاهره ؛ وثانيهما لإيضاح هذه الصلة بين فنون الشعر وبين هذه العواطف المختلفة إذ كان الشعر أو الأدب جميعه ظاهرة عاطفية فى أظهر خواصه وسابق نشأته .

والآن — ونحن نحاول دراسة القوانين النقدية للعاطفة الأدبية — نجد من الضرورى أن نعين الناحية التى تتجه إليها لنقد عاطفتها ، أهى ناحية الأديب الشاعر أو الناثر ، أم هى ناحية القارىء أو السامع ، أم ناحية الممثلين المسرحيين الذين يقومون بإلقاء القطع الأدبية وتمثيل مدلولاتها ؟ ومعنى ذلك أننا حين ننقد « مجنون ليلى » لشوقى ، أننقد عاطفة شوقى الذى أنشأ هذه القصائد والمقطوعات ؟ أم عاطفتنا نحن الذين قرأنا وسمعنا فثارت فى نفوسنا عواطف الشوق والإعجاب والشفقة مثلا ؟ أم عواطف هؤلاء الذين عرضوها علينا فوق خشبة المسرح عرضاً قوياً مؤثراً ؟

الواقع أننا - فى حالات مختلفة - نلم بكل هذه النواحى ، فإذا قلنا إن العاطفة الأدبية يجب أن تكون صادقة ، أردنا بذلك أن الشاعر مثلا يجب أن يشعر فى نفسه بهذا الحزن الذى يريد أن يُشعر به قراءه ، وإذا وصفنا القصيدة بأنها حزينة أو مطربة ، فإننا نشير بذلك إلى تأثيرها فى نفوسنا وإثارتها العواطف نحن القراء ، وأما إذا قلنا إن هذه الرواية أو القصة ذات مواضع قوية كثيرة ، كان المقصود بذلك أن العواطف تعرض علينا عرضاً قوياً بجهود هؤلاء الممثلين وبراعتهم النفسية والجسمية . ومع هذا فواضح من الناحية العملية أن توافر القوة أو الصدق للعاطفة فى ناحية منها يستلزم توافره فى سائر النواحى ، فهل يستطيع الأديب أن يحزننا قبل أن يكون الحزن قد غشى نفسه وملك شعوره ؟ أو يتيسر للحماسى أن يلهب نفوسنا حمية ، دون أن تضطرب جوانبه نخوة وحماسا ؟ وللخروج من

هذا التردد رأى النقاد قصر المسألة على جهة واحدة هى جهة القارىء ، لأنه مظهر التأثير الأدبى . ومن هنا يقولون : إن العنصر العاطفى فى الأدب هو تلك القوة التى تثير العاطفة فينا نحن القراء .

— ٣ —

ولكن العواطف الأدبية . . ما هى ؟

من الصعب الإجابة عن هذا السؤال إجابة قاطعة لكثرة العواطف وتنوعها، ولكن هناك نوعان منها لا يطمئن النقاد إلى عدهما من العواطف الأدبية السامية، ومعنى هذا أن الأدب الذى يصورهما يكون هيناً وضيعاً لا يستحق الاحترام :

(١) أولهما العواطف الشخصية ، وهى تلك العواطف التى تحملنا على السعى وراء منفعة خاصة بنا . أو على الأثرة ، أو النفعية ، فالجشع والفرار من الميدان ، والانتقام ، والتملق فى سبيل المال ؛ كل تلك لا تعد من العواطف السامية مادامت وقفاً على صالحى الخاص دون أن ينال سواى منها شىء ، فشكرى رجلا جاملنى خير ، ولكن خير منه وأسمى أن أشكر إنساناً لأنه كريم أو فدائى ولو لم أنل منه شيئاً؛ فالنابغة الذبيانى حين يمدح النعمان بن المنذر متأثر بعطائه ، وخاضع لعاطفة حب خاصة به هو دون الناس ، لذلك لا ينال شعره هذه الدرجة التى يبلغها شعر زهير بن أبى سلمى فى مدحه هرم بن سنان والحارث بن عوف المريين لسعيهما فى الصلح بين عبس وذبيان فى حرب داحس والغبراء وتحملهما ديات القتلى ، إذ كان شعر زهير مثيراً فى نفوسنا عواطف كريمة ، هى الإحسان للإحسان أو للناس الآخرين ، وهناك فرق عظيم بين شعورك حين تقرأ قول النابغة :

فإنك شمس والملوك كواكب   إذا طلعتْ لم يبد منهن كوكب
ألم تر أن الله أعطاك سورة   ترى كل ملك دونها يتذبذب

إذ تجد النابغة يغنى فى ممدوحه ويرفعه لينال منه ما يبتغى لنفسه ـ وبين شعورك حين تسمع إلى زهير يرسم المثل العالى لحب السلام والخير والعمل للإنسانية :

تداركتما عبساً وذبيان بعد ما تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم
وقد قلتما إن ندرك السلم واسعاً بمال ومعروف من القول نسلم
فاصبحتما منها على خير موطن بعيدين فيها من عقوق ومأثم
عظيمين فى علیا معدٍّ هديتما ومن يستبح كنزاً من المجد يعظم

كذلك تجد الفرق عظيما بين قول أبي فراس :

معللتى بالوصل والموت دونه إذا مت ظمآناً فلا نزل القطر

وبين قول المعرى :

فلا هطلت على ولا بارضى سحائب ليس تنتظم البلادا

إذ تجد أثرة وأنانية لا يحمد لنا مشاركة الشاعر فيها، ولكننا نظفر عند أبى العلاء بالإيثار الذى يحرص عليه كل فاضل كريم .

نعم هناك رأى يقول إن الحياة كفاح وأنانية . وليس ما يمنع أن يصور الأدب هذه العاطفة الذاتية كغيرها . ولكن الأدب - مع أنه تصويرى - يجب أن يكون وسيلة للتسامى والإصلاح ، ولا نعتقد أن هناك من يسوى بين هاتين العاطفتين مطلقاً .

إنما المسألة هى : كيف نضع الأدب العربى - وبخاصة الشعر العربى - من هذا القانون الصارم ؟ كثيراً ما نعى النقاد على هذا الشعر غلبة المديح عليه واتخاذه وسيلة للمال ، وبذل الشعراء حياتهم فى التردد بين الأغنياء والأمراء حاملين هذه القيثارة يستجدون بها أناساً قد لا يفهمون عنهم ما يقولون ، حتى انحط الشعر وملئت دواوينه بالمدائح ، وصار ذلك سبة فى وجه الأدب العربى . فما الرأى فى ذلك ؟ سأحاول هنا - فى إيجاز شديد - وضع المسألة وضعاً لعله يوافق الباحثين أو يحملهم على مناقشة هذا الرأى علنا نصل إلى الحق دون مواراة أو مغالاة .

١ — أول ما نذكر هنا أن كثرة المديح فى الشعر العربى لا يقع وزرها على الشعراء وحدهم ، وإنما يشاركهم فى ذلك الخلفاء والأمراء والحكام والسراة ، أولئك الذين كانوا يجزلون العطاء على المدح ، ويفهمون الشعراء بذلك أن هذه

هى الوسيلة الفذة لرضاهم واستخراج عطاياهم ، وكثيراً ما كان الأمراء وغيرهم يتنافسون فى استرضاء الشعراء وحبس مدحهم عليهم ، إشاعة لذكرهم ، وتخليداً لأسمائهم ، وكيداً لأعدائهم؛ فتهالك الشعراء على العظماء بالإطراء جلباً للمال وحصولا على حياة الرفه ، وقد رأينا أن عبد الملك بن مروان نفس على الحجاج مديح جرير فيه ، وأن المتنبى كانت مدحته فى رأى الملوك لسان الشهرة وصحيفة الخلود. على أن المدح يعاب لو كان هو الفن الفذ فى الشعر العربى ، ولكننا نجد بجانبه غزلا ، ووصفاً ، ورثاء ، وحماسة ، وعتاباً ، وشكوى ، واعتذاراً ، وغيرها .

ب — وثانى ما نذكر أن قصائد المديح التى تزخر بها دواوين الشعراء ليست كما يظهر ، مدحاً شخصياً خالصاً ، كلا ، فإنك تقرأ القصيدة المادحة فتجد فيها نسيباً رقيقاً يكاد يكون فناً وحده ، وهذا الفن نوع يمهد به الشاعر لنفسه ولفنه ، ويعد به نفوس السامعين كما لاحظ ذلك ابن قتيبة فى كتاب الشعر والشعراء ، ثم نجد ثناء هو من غير شك عرفان جميل ، أو تصوير بديع لشخصية الممدوح ، وخير من ذلك أنك تجد الشاعر ينصرف كثيراً عن الأمير إلى مدح الكرم فى ذاته ، وكذا الشجاعة ، والوفاء ، وبعد الهمة ، وهو إذ يفعل ذلك إنما يرسم المثل الأعلى للفضائل الانسانية ويثير فى نفوس الناس أكرم العواطف وأنبلها ، فالمدح هنا ليس مدح شخص وإنما هو مدح مذاهب وفضائل . وهنا يكون من المستحسن كثيراً تغيير عنوان كثير من قصائد المديح أو تعديلها على أقل تقدير .

ج — وثالث شىء أن هناك نواحى أخرى فى الشعر العربى مدحاً وغيره تعد بحق مصدر متعة ، وثقافة ، وتهذيب سديد . هناك غير الغزل والحماسة والوصف ، حكمة الحياة وفلسفتها ، ولسنا هنا بعرض القول فى صلة هذين النوعين بالشعر ، ولكننا هنا نقول إن ما أثر منهما فى الشعر العربى يجعل فنونهما — من حيث الأساليب والأفكار والعواطف — من أرقى أنواع الشعر الإنسانى ، حكمة الحياة كما رسمها أبو الطيب ، وفلسفتها كما تصورها المعرى ، فنان من الفنون الخالدة ، نمن منا اليوم وقبل اليوم وفى مستقبل الحياة ، فى مصر وفى الدنيا جميعاً لا يطمئن إلى قول المتنبى :

ومراد النفوس أصغر من أن تتعادى فيه وأن تتفانى
غير أن الفتى يلاقى المنايا كالحات ولا يلاقى الهوانا

أو ينكر على شيخ المعرة قوله :

لو عرف الإنسان مقداره لم يفخر المولى على عبده
أمس الذى مر على قربه يعجز أهل الأرض عن رده

هذه آراء كل زمان ومكان تبعث فى النفوس دائماً عواطف العزة والطموح حيناً ، والتواضع والوقار حيناً آخر ، وفى كلتا الحالين نجد الشعر صادقا ، والحقيقة واضحة ، والشعور كريماً نبيلا .

د — أما رابعا ، فقد فات هؤلاء الناقدين أنهم إنما يوازنون بين أدب غربى حديث وأدب عربى قديم ، حين يثيرون هذه المسائل ، فإن هذه الخواص الموضوعية أو الإنسانية أو التهذيبية التى يعتزون بها فى شعرهم الحديث إنما هى ثمرة حضارة حديثة ، وتهذيب شامل ، واعتراف بالقوميات والمذاهب الاجتماعية العامة ، فكان الشعر الغربى صورة لهذه الحياة ، وما يدرينا فلعل ما نراه الآن من المحاولات الشعرية يكون - وسيكون حتما - مقدمات لوضع الشعر العربى الحديث فى مكانة إنسانية عامة ، وهذا هو المفروض والمنتظر .

(٢) والنوع الثانى من العواطف التى لا ترضى النقاد هو العواطف الألمية ، ويراد بذلك أن الأدب الذى يثير فى نفوس القراء عواطف تكون مصدر هموم وآلام ، لا يعد أدباً قويماً ؛ وما كانت مهمة الأدب فى الحياة أن يكدرها وينشر فيها اليأس ، والسخط ، والظلم وغير ذلك ، ولا ينكر النقاد وجود هذه العواطف وعرفانها ، ولكنهم يقولون إن عرفانها ودرسها من وظيفة العلم ، وأما الأدب - لأنه فن جميل - فوقفه منها موقف من يخفف ويلاتها ويمحو آثارها ، ولن يرضى إنسان ببث المشاعر الألمية إلا إذا كان مريض النفس ، سقيم الوجدان ، كئيب الحياة ؛ ومن هنا لا يرضى هؤلاء عن مثل قول أبى العلاء :

أيا دار الخسار ألا خلاص فأذهب للجنوب أو الشمال
وظلم أن أحاول فيك ربحاً ولم أخرج إليك برأس مال

لأنه يبعث اليأس من خير الحياة ، وينشر النقمة والسخط ، ويصرف الإنسان عن الجد والاطمئنان ، وكلنا يذكر قصة سديف الشاعر حين دخل على السفاح وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك فأنشده :

لا يغرَّنك ما ترى من أناس ... إن تحت الضلوع داء دَوِيّا
فضع السيف وارفع السوط حتى ... لا ترى فوق ظهرها أُمويا

فأمر السفاح بسليمان فقتل فى الحال ، فانظر كيف أثار الشاعر فى نفس السفاح عاطفة ساخطة ظالمة أدت إلى جريرة القتل والذهاب بنفس هى بريئة على أية حال . وقد يكون الشاعر على حق فيما ادعى من حنق الأمويين ، ولكن هل هذه الظنة تنتج التنكيل والوبال ؟!

وهناك فرق بين إثارة العاطفة الأليمة فى نفوس الناس ، وبين تصوير الآلام الإنسانية التى تثير فى النفوس عواطف الرحمة والشفقة والإحسان ، فإذا وجدت غريباً نازح الدار قطعت الحوادث صلته بآله ، وأفردته بلا أنيس فقلت ما قال ابن الجهم .

وارحمتا للغريب فى البلد النا ... زح ما ذا بنفسه صنعا ؟
فارق أحبابه فما انتفعوا ... بالعيش من بعده ولا انتفعا !
يقول فى نأيه وغربته ... عدلٌ من الله كل ما صنعا

كنت الآن عاملا على إثارة الحدب والعطف على هذا الغريب ، وهى عاطفة سامية محمودة نشأت عن تصوير حال مؤلمة ، وهنا نضع الروايات الحزينة التى تمثل فتصور آلام الطبقات أو الأفراد البائسين لحمل الحكومات والشعوب على البر بالناس . ومن أمثلة هذا النوع المحمود فى الأدب ما ورد فى خطبة على بن أبى طالب : « . . . ولقد بلغنى أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة والأخرى المعاهدة فينتزع حِجلها وقلبها وقلائدها ورعاثها ما تمتنع عنه إلا بالاسترجاع والاسترحام ، ثم انصرفوا وافرين ما نال رجلا منهم كلم ولا أريق لهم دم . . » يستحث أهل الكوفة على حرب أهل الشام . ومن ذلك قول حافظ إبراهيم فى زلزال صقلية وآثاره :

رب طفل قد ساخ فى باطن الأر ض ينادى : أمى ، أبى ، أدركانى
وفتاة هيفاء تشوى على الجمـ ـر تعانى من حره ما تعانى

وخلاصة هذه النقطة أن هناك فرقا بين بعث الآلام فى النفوس وبين العمل على تخفيفها عن الناس المنكوبين .

— ٤ —

إذا تركنا هذين النوعين بقى أمامنا باب العواطف الأدبية متسعا يتناول جميع ما يصل الإنسان بالحياة ، ويؤثر فيه من مظاهرها وآثارها ، ولسنا هنا بصدد تفصيل ذلك والتورط فى وجوه الآراء والخلاف حوله ، وإنما نسرع فنلم بما سميناه المقاييس النقدية لهذا العنصر الأدبى الجميل .

ذكر النقاد عدة مقاييس لنقد العاطفة فى الأدب نقتصر منها هنا على ثلاثة :

(١) صدق العاطفة .
(٢) قوة العاطفة .
(٣) درجه العاطفة .

وسنتناول هنا إيضاح كل مقياس قدر المستطاع .

(١) الغرض من صدق العاطفة أن تكون ذات سبب صحيح قوى استطاع أن يبعث فى نفس الشاعر تأثراً قوياً عميقاً حاول هو أيضا أن يبعث مثله فى نفوسنا بما ينشد من الأشعار ، فموت الوالد الكريم ، أو البطل العظيم ، أو الحبيب الصادق يثير من غير شك حزناً عميقاً تنشأ عنه المراثى ذات العاطفة الصادقة والتأثير الصحيح ، تجد ذلك فى رثاء ابن الرومى لابنه ، والمعرى لصديقه الفقيه ، وشوقى لوالدته ؛ ذلك لارتباط كل من هؤلاء بميته ارتباطاً وثيقا من الصداقة أو المحبة فكان موته رزءاً عظيما بلغت آثاره سويداء القلب وقرارة النفس ، ولا يسع المقام هنا إيراد الأمثلة وتحليلها ، ولكنى أكتفى بذكر مثال واحد لشوقى حتى أعرض للناحية التطبيقية فى مقال آخر ؛ قال شوقى يذكر أمه وموتها فى مصر وهو غريب فى الأندلس ، وكانت تتمنى لقاءه عقب إعلان الهدنة سنة ١٩١٨ :

أَسَتْ جُرْحَهَا الأنباءُ غيرَ رفيقةٍ وكم نازعٍ سهما فكان هو السهمَا
تَغار على الحُمّى الفضائلُ والعلا لِمَا قبّلت منها وما ضمّت الحُمّى
أكانتْ تَمنّاها وتهوَى لِقاءها إذا هى سمّاها بذى الأرض مَن سمّى
ألمّت عليها واتقت ثمراتِها فلما وُقُوا الاسواء لم تُرِها ذَمّا
فيا حسرتَا ألاّ تراهم أهلّة إذا أقصر البدرُ التمامُ مَضوا قُدْمَا

وهناك رثاء يقوم على المجاملات ، أو الطمع المادى ، تجده خارجا من اللسان فلا يتجاوز الآذان ، لخلوه من الشعور النفسى الصادق . وكم لذلك من أمثلة ، ومثله مثل المدائح الممقوتة المنافقة التى لا تعتمد على حق قائم أو شعور صحيح .

ومن هذا النوع المريض تلك الخطب الوعظية التى يلقيها الخطيب محفوظة من الدواوين دون أن تعلق بقلبه أو تصدر عن نفسه فلا يكون له عمل إلا تلاوتها أو قصها .

ولذلك يوصف هؤلاء بالمرض القلبى ، وتبدو مظاهر ذلك فى إلقاء الخطيب وعدم تنغيمه ، وفى انصراف السامعين وعدم تأثرهم . كذلك هؤلاء الذين يصنعون الشعر غزلا تقليدياً تجدهم فاترى الحس باردى الأسلوب لا ينالون من النفوس شيئاً لكذبهم الصحيح . وقد جلس الناس فى حفل رثاء شوقى يستمعون للخطباء والشعراء هادئين حتى جاء دور الأستاذ بشارة الخورى فكان أول من حملهم على الاستعادة والانفعال ولعله الفذ الذى كان يستوحى عواطفه فيما قال .

ولبعض النقاد رأى يضع فى دائرة العاطفة المريضة شعر الغزل الحزين كشعر المجنون ، والعباس بن الأحنف ، وشعر السخط والتشاؤم كآثار المعرى بناء على أن ذلك ثمرة ضعف النفس وتقهقرها فى ميادين الحياة ؛ وكل قول فى هذه النواحى تدور حوله مناقشات وآراء ليس هنا مجال استعراضها والفصل فيها .

(٢) قوة العاطفة — وهذا من أهم المقاييس النقدية وألزمها ، وأمامه نسأل أنفسنا : هل أثار النص الأدبى شعورنا ؟ وهل بعث فينا إحساساً حياً قوياً ؟ وهل أيقظ نفوسنا وأنعشها ؟ وهل أوسع نظراتنا إلى الحياة وأحيا قلوبنا ؟ أو كما يقول الفرنجة : هل وهب لنا عيناً جديدة نرى بها ، وقلباً جديداً نحس به ؟ إذا كان

الأمر كذلك كان النص أدباً ، وكلما كانت هذه الخواص أظهر وأقوى كان الأدب أقرب إلى الكمال ، ولذلك يقول أمرسن : « ليس للأدب أثر أكثر من الإلهام » . فاذا قرأت للبحترى قوله :

إذا ما نسبت الحادثات وجدتها بنات زمان أرصدت لبنيه
متى أرت الدنيا نباهةَ خامل فلا ترتقب إلا خمولَ نبيه

تنبَّهَ فى نفسك التأمل فى هذا الصراع بين الحوادث والناس وما يلقى هؤلاء من عنت الأيام وصروف الزمان ، ثم هذه الحظوظ المعكوسة التى ترفع الخامل وتهوى بالنابه الجليل ، وقد يثمر هذا التأمل الوصول إلى كثير من النتائج والنظريات الفلسفية والاجتماعية . وهذا يعيد إلى الذهن ما أسبقناه من أن الأدب يقوم بنقد الحياة وتفسيرها ، أى أنه يتكشف لنا عن نواح وأسرار لا يهتدى إليها إلا الأذكياء العبقريون ، ومن ذلك ما عرضه علينا ابن خفاجة الاندلسى من معانى الزهرة حيث يقول :

ومائسة تزهى وقد خلع الحيا عليها حلى حمراً وأردية خضرا
يذوب لها ريق الغمائم فضة ويسكن فى أعطافها ورقاً نضرا

فالزهرة هنا فتاة مزهوة بجمالها قد ألبسها الغيث حلى حمراء وثيابا خضراء ، فتن بها الغمام فسال لعابه ، وقد أحالت قطراته ذهبا حين استقرت فى ثناياها ، ويجب ألا يفهم من معنى القوة أو الروعة هذا النوع الحاد العنيف دون الهادىء الرزين فإن الحدة قد لا ترتكن على أصل عميق ينبه فى القارىء التأمل والتفكير لأن سببها قد يكون سطحياً لا خطر له ، ومن ذلك قول المتنبى :

ملِثّ القطرِ أعطِشْهَا رُبوعَا وإلاَّ فاسقها السم النقيعـــا
أسائلها عن المتَدَيِّريهـا فلا تدرى ولا تُذرى دموعا

فهذه العاطفة الثائرة تنتهى بنا إلى صمت الربوع وعدم عرفانهامقر الأحبة ، واستعصائها على البكاء والنحيب .

ومن الصعب وضح مقياس عام نعتمد عليه فى تقدير قوة العواطف المختلفة ، وسبب ذلك اختلاف العواطف فى طبيعتها ، فمنها القوى الصارم ومنها الهادىء

الرزين وذلك يجعل من الصعب إخضاعها لناموس واحد ، كذلك يختلف الناس فى مقدار تأثرهم بالعواطف ؛ فهذا تهيجه عاطفة الحب ، وذاك يشجيه الحزن ، وثالث يراع بالحماسة ، وعلى أية حال فيترك الفصل فى كل مسألة للنقد التفصيلى التطبيقى . على أن قوة العاطفة تستلزم صفة أخرى هى ثبات العاطفة واستمرارها ؛ ولسنا نعنى هنا بقاء العاطفة فى نفوسنا ثائرة متقدة حتى بعد الفراغ من القراءة والانصراف عنها ، فهذا غير ممكن أبدا كما قدمنا ، وإنما يراد هنا أن يبقى نوع العاطفة مسيطراً على القصيدة أو القصة من أولها إلى آخرها مهما تختلف الفنون وتَطُل الموضوعات ، فشوقى فى أندلسياته كلها حزين ، ولكنك تجد مع هذه النغمة الحزينة ظاهرتين :

الأولى : اختلاف تصوير الحزن من حيث درجته ، فهو مرة قوى عميق :

وسلا مصر : هل سلا القلب عنها ؟ ‌ ‌ ‌ أو أسا جرحه الزمان المؤسِّى ؟

ومرة عنيف حاد :

لو استطعنا لخُضنا الجوَّ صاعِقة ‌ ‌ ‌ والبرَّ نارَ وغًى والبحرَ غِسلينا

سعياً إلى مصر ، نقضى حقَّ ذاكرِنا ‌ ‌ ‌ فيها إذا نَسىَ الوافى ، وباكينا

الثانية : أن هذا الحزن قد يلبس ثوب العبرة والشوق إلى مصر أو الشكوى من الظلم أو التأسى بالعشير . ولكن ذلك كله خاضع لتلك النغمة السائدة الحزينة :

يا ابنة اليم ، ما أبوكِ بخيل ‌ ‌ ‌ مالهُ مولعاً بمنعٍ وحبسِ

أحرامٌ على بلابله الدو ‌ ‌ ‌ حُ ، حلال للطيرِ من كل جنس ؟

ثم يقول من قصيدة أخرى :

يا نائح الطلح أشباهٌ عوادينا ‌ ‌ ‌ نأسى لواديك أم نشجى لوادينا

ماذا تقصُّ علينا غير أن يد ‌ ‌ ‌ قصّت جناحك جالت فى حواشينا

رَمى بنا البينُ أيكا غير سامرِنا ‌ ‌ ‌ أخا الغريبِ ، وظلا غير نادينا

وكذلك الشأن فى القصة أو الرواية التمثيلية : تجد نغمة فكهة ، أو حزينة ، أو بهيجة تسيطر على جميع فصولها مهما يتخللها من مظاهر أخرى تغاير طبيعتها

أو تساعد على استمرارها . وأشد ما يظهر استمرار العاطفة فى المقطوعات . كما أن هذا الاستمرار فى الملاحم يدل على براعة الشاعر وتمكنه من فنه البديع .

وكثيراً ما يفشل الشاعر أو الناثر فى هذه الناحية ، وذلك يعود فى الغالب إلى واحد من أمرين : أحدهما أن شعور الأديب نفسه غير ثابت لعدم إدراكه موضوعه على أنه وحدة كاملة يتأثر فى كل نقطة بالعاطفة ذاتها ، مكتفياً بالنقط الرئيسية فينسى نفسه أو موضوعه فى أكثر مراحله وتكون النتيجة اضطراب الأدب وظهور التفاوت بين فصوله وأجزائه . وثانيهما اعتقاد الأديب أن القوة العاطفية يمكن أن تقوم على التقليد والادعاء ، فيحاول ذلك بهذه الصور التهويلية والمحسنات البديعية يدارى بها فقره الشعورى أو العقلى ، وقد كان هذا عيب كتاب الصنعة وشعراء البديع ، لا سيما فى عصور الانحطاط .

(٣) درجة العاطفة من حيث سموها ومنعتها ، وهذا يثبت أن هناك تفاوتا بين العواطف من حيث الدرجة ، فعواطف سامية نبيلة وأخرى دنيئة حقيرة ، وهذا ليس موضع خلاف بين النقاد ، فليس من المستطاع أن نسوى بين عاطفة الاحسان و عاطفة الحسد والأنانية ، وليس من يضع عرفان الجميل بجانب العقوق والنكران ، ولكن الخلاف شديد جداً حول بيان هذين الصنفين وفصل ما بينهما ، ثم حول المقاييس التى يعتمد عليها فى بيان الفاضل والمفضول ، وهذا البحث متصل بعلوم النفس والأخلاق و لاجتماع فلنتركه ما دام فى الغالب بحثا نظريا لا يسعفنا كثيرا فى الناحية التطبيقية النقدية ، ولنعتمد على إيراد بعض أمثله للخواص التى نود ذكرها هنا .

(١) هناك عواطف تثار بسبب الناحية الشكلية للأدب ، كحسن الأسلوب والمحسنات البديعة ؛ وعواطف أخرى تثار بسبب المعانى وقوتها وحسن توليدها وابتكارها ، ولا يمكن أن تكون الأولى كالثانية ، وقد رأينا فى الأدب العربى كتاب الصنعة كالبديع والخوارزمى والحريرى ، وكتاب الطبع كابن المقفع وعبد الحميد وسواهما من المعاصرين ؛ فلا يصح أن تخدعنا هذه الموسيقى اللفظية عما يجب أن يتوافر للأدب من المعانى . وكذلك عندنا شعراء البديعيات الذين أفسدوا بعض

شعرهم بهذه المحسنات الظاهرة ، وشعراء المعانى الذين فتحوا فى الشعر أبوابا جديدة رائعة . وقد علمت أن هذه الأبيات المشهورة « ولما قضينا من منى كل حاجة » على جمال أسلوبها لا يمكن أن توازى أبياتا أخرى للشريف أو المتنبي أو المعرى ، كذلك ينكر النقاد هذه الجلجلة التى شوهت كثيراً من شعر أبى تمام وابن هانىء ، ووقفت به عند الأذن دون التغلغل إلى باطن النفوس :

وأنجدتمُ من بعد إتهام داركم فيا دمعُ أنجدنى على ساكنى نجد

ولا يمكن هذه الصور المتتابعة أن تروق أحداً إلا تلاميذ علم البيان :

فأمطرت لؤلؤاً من نرجس، وسقت ورداً ، وعضت على العناب بالبرَدِ

(٢) وهناك قطع أدبية تعتمد فى تأثيرها على أن تترك فى الخيال أو الذاكرة لذة حسية تروق العين ، أو الأذن ، أو ـ حتى ـ اللمس والذوق ، وهذا يكون غالباً فى الأدب الوصفى :

غدونا تنفضُ الأغصانُ فيه على أعرافها مثلَ الجُمان

فسرتُ وقد حجبنَ الشمس عنى وجئنَ من الضياء بما كفانى

وألقى الشرقُ منها فى ثيابى دنانيراً تفر من البنان

وأمواهٌ يصل بها حصاها صليلَ الحلى فى أيدى الغوانى

فإذا وقف الوصف عند تغذية الحواس الظاهرة دون إيماء معنوى وإثارة مشاعر الحس الباطنى كان أقل من سواه ، كهذا المثال الذى ذكرناه لأبى الطيب يصف شعب بوان ، ويمكنك تبيُّنُ ذلك حين توازن بينه وبين ابن خفاجة يصف جبلا :

وقور على ظهر الفلاة كأنه طوالَ الليالى ناظر فى العواقب

أصختُ إليه وهو أخرسُ صامت فحدثنى ليلَ السرَى بالعجائب

وقال إلى كم كنتُ ملجأ قاتل وموطنَ أوَّاه تبتلَ تائب

وكم مرَّ بى من مدلج ومؤوِّبٍ وقالَ بظلى من مطى وراكب

تجد الوصف هنا يشعرك برهبة وجلال . ويتجاوز بك هذه الحواس الظاهرة

إلى قواك المفكرة والباطنة فيثير عواطف الإجلال والخشوع ، ويبعث فى النفس إعتباراً وعظة ؛ ومعنى هذا أن هذه العواطف الحسية لاتكون فى مستوى العاطفة المعنوية الروحية .

(٣) ونختم هذه الأمثلة بالإشارة إلى مسألة شغلت النقاد منذ القرن الخامس أو الرابع قبل الميلاد إلى اليوم . وهى هذه الصلة بين الأدب والفضيلة ، فهل يقاس الأدب حين نقده بمقياس خلقى ، فيكون الأدب ساميا إذا أثار عواطف كريمة ، ويعد ساقطا إذا حمل على الاستهار والتبذل والفجور ؟ ومعنى هذا أننا نقدم الأدب الذى يهيج العواطف الفاضلة ويؤدى إلى الصدق والشجاعة والتقوى والاحترام ، ونرفض سواه . وقد انقسم النقاد أمام هذه المسألة قسمين : فمنهم من يرى للأدب حريته التعبيرية دون اهتمام بآثاره أو موضوعاته لأنه فن يعنيه التصوير والتأثير أيا كان نوعه ، ومنهم من يحمل الأدب على التزام جانب الفضيلة والحرص على كيان الأخلاق ؛ فأبو نواس ومدرسته ليسوا من ذوى الشعر السامى فى نظر هؤلاء ؛ وقد تبع ذلك ، البحثُ فيما عسى أن ينال الأدب من الضيق والعنت إذا حبس فى حدود الفضائل . وحاول آخرون التوسط فى الأمر وقالوا : على الأديب أن يكون صادق الأداء وهو حين يعرض للرذائل لابد أنه متعرض لآثارها السيئة ، وهذا يكفى رادعا مهذبا ، ولكن من يضمن هذا ؟ ومهما يكن من شىء فلا تزال الحياة المحترمة تقف فى جانب الخير وتفضل الأدب الذى يثير العواطف الكريمة على سواه ، وقد شرحت هذه النظرية فى غير هذا المكان . ويستطيع القارىء أن يدرك مبلغ الأثر الذى يتركه شعر أبى نواس الخليع فى نفوس الشباب ، والأثر الكريم الذى ينشأ عن قراءة جميل والمجنون والمتنبى والشريف وغير هؤلاء من أصحاب الأدب الطاهر السامى . وقبل أن أترك القلم أرجو أن يعرف القراء أنى اقتضبت هذا البحث اقتضابا ، وتركت أكثر نواحيه بدون مناقشة وتفصيل ، واعتمدت كثيراً على مراجعتهم الخاصة ، وأملى أن أفرغ فى أوقات أخرى إلى بسط القول فيما أجملت هنا . والسلام

أحمد الشايب

تاريخ القـــرآن

للأستاذ عبد الوهاب حمودة

إن للقرآن أربعة أسماء ، هى نص فى الاسمية وفى الدلالة عليه ، وهى : القرآن والذكر ، والكتاب ، والفرقان .

وقد ذكر بعض العلماء للقرآن أسماء كثيرة ، غير أن جلها لا يظهر له وجه لجعله من قبيل الأسماء ، وكأنهم ظنوا أن كل ماوصف الله (تعالى) به القرآن أو أطلقه عليه على أى وجه كان ، يصح جعله اسما من أسمائه .

وترتيب ورود هذه الأسماء فى القرآن بحسب التاريخ ، هو أن لفظ (القرآن) أسبقها نزولا ؛ فهو أول ما سمى به الكتاب الكريم ؛ إذ ورد ذلك فى سورة (المزمل) فى قوله تعالى : « ورتل القرآن ترتيلا . »

وسورة المزمل هذه نزلت فى الفترة ما بين ٦١٠ م و ٦١٥ م ، وهى السنة التى حدثت فيها الهجرة إلى الحبشة ؛ وترتيبها تاريخيا الثالثة أو الرابعة من السور[1] وكان لفظ القرآن حينئذ يطلق على الجزء منه لا كله ، لأنه لم يكن قد تم بعد .

ثم نزل لفظ (الذكر) ، وهو فى سورة (ص) فى قوله تعالى : « أأنزل عليه الذكر من بيننا ؟ بل هم فى شك من ذكرى . »

ثم نزل لفظ (الكتاب) ، وذلك فى سورة (ص) أيضاً ، فى قوله تعالى : « كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدّبّروا آياته وليتذكر أولو الألباب . »

وهذه السورة مما نزل فى الفترة التى تبتدىء سنة ٦١٥ م وهى عام الهجرة الأولى إلى الحبشة ، وتنتهى بسنة ٦١٦ م وهى عام الهجرة الثانية إلى الحبشة ، وترتيبها فى النزول تاريخياً السابعة والثلاثون .

ثم نزل لفظ (الفرقان) فى سورة (الفرقان) فى قوله تعالى : « تبارك الذى

---

(١) فى مصحف على : (اقرأ ، المدثر ، ن ، المزمل)
وفى مصحف ابن عباس : (اقرأ ، ن ، المزمل ، المدثر)

نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً . » وترتيب هذه السورة تاريخياً الحادية والأربعون ، وهى مما نزل فى الفترة الثالثة من السور المكية ، وهذه الفترة تبتدىء من سنة ٦١٧ م إلى ٦٢٢ م ، وهى السنة التى هاجر فيها الرسول إلى المدينة .

ومما يلاحظ على هذه الأسماء الأربعة أنها جميعها فى الأصل مصادر ، ثم أطلقت إطلاق الأعلام على الكتاب الكريم المنزل على محمد (صلى الله عليه وسلم)

فالقرآن مصدر ، وهو إما من قرأ بمعنى جمع ، وهو أسبق تاريخياً ؛ أو من قرأ بمعنى تلا .

فإذا كان مصدراً من قرأ بمعنى (جمع) ، كانت تسمية الكتاب الكريم قرآناً ، لكونه جامعاً لثمرة الكتب التى تقدمته فى النزول ، أو لأنه جمع القصص والأمر والنهى والوعد والوعيد ، وإذا كان من قرأ بمعنى تلا ، يكون قرآناً بمعنى مقروءاً متلوًّا ، فهو من استعمال المصدر فى اسم المفعول .

ومع هذا فقد أطلق لفظ القرآن فى الكتاب الكريم على معان أخرى : منها القراءة ، كما فى قوله تعالى : « فإذا قرأناه فاتبع قرآنه . » ومنها الصلاة ، قال تعالى : « وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً . »

ولكن هل أطلق لفظ القرآن على الكتب المقدسة الأخرى : كالتوراة ، والإنجيل ، والزبور نا لم نجد فى الكتاب الكريم لفظ القرآن مطلقاً على غير هذا المنزّل على محمد (صلى الله عليه وسلم) ، ولكن يروى صاحب الإتقان حديثاً عن النبى (صلى الله عليه وسلم) قد أطلق فيه لفظ القرآن على الزبور ، مما يفيد أن لفظ القرآن ليس خاصاً بكتابنا الكريم . وهو قوله (صلى الله عليه وسلم): « خُفِّف على داود القرآن . » أى الزبور [١] .

أما الذكر فهو فى الأصل مصدر ، قال تعالى « أأنزل عليه الذكر . » وسمى القرآن بالذكر لما فيه من المواعظ وأخبار الأمم الماضية .

والكتاب فى الأصل مصدر ، ثم سمى المكتوب فيه كتابا ، وهو أيضا بمعنى الضم والجمع مطلقا ، ثم أطلق على ضم الحروف بعضها إلى بعض بالخط أولا ،

---

(١) الإتقان : ص ٥٢

ثم على المضموم بعضها إلى بعض باللفظ ثانيا بعد ذلك ، ولهذا سمى كلامُ الله (وإن لم يُكتب) كتابا ، كقوله تعالى :

« آلم ، ذلك الكتاب لا ريب فيه » (١)

فاسم الإشارة (ذلك) وقعت الإشارة فيه إلى الم ، وهى حروف ملفوظة .

ولنذكر الآن من باب الاستطراد معنى هذه الأحرف وما شابهها :

فإعرابها : أن (الم) مبتدأ ، و (ذلك) مبتدأ ثان ، (والكتاب) خبره ، والجملة خبر (الم) وأغنى الربط باسم الاشارة . ويجوز أن يكون (الم) مبتدأ ، (وذلك) خبره ، (والكتاب) بدلا منه أو عطف بيان . وهناك أوجه أخرى

وأما المعنى فأيسره على الفهم والعقل هو ماقاله الزمخشرى ٤٦٧ هـ ، والفخر ٦٠٦ هـ ، وصاحب الإتقان ٩١١ هـ ، والألوسى ١٢٧٠ هـ ، وأبو بكر الصولى ٣٣٥ هـ فى أدب الكتاب ، والقاضى عبد الجبار ٤١٥ هـ فى كتابه تنزيه القرآن عن المطاعن :

« إن ورود هذه الأسماء هكذا مسرودة على نمط التعديد هو كالإيقاظ وقرع العصا لمن تُحُدِّىَ بالقرآن وبغرابة نظمه ؛ وهو كالتحريك للنظر فى أن هذا المتلوّ عليهم وقد عجزوا عنه عن آخرهم ، كلام منظوم من عين ما ينظمون منه كلامهم ، ليؤديهم النظرُ إلى أن يستيقنوا أنه لم تتساقط مقدرتهم دونه ، ولم يظهر عجزهم عن أن يأتوا بمثله بعد المراجعات المتطاولة ، وهم أمراء الكلام ، وزعماء الحِوار ، وهم الحراص على التساجل فى اقتضاب الخُطب ، والمتهالكون على الافتنان فى القصيد والرجز ؛ وأنه لم يبلغ من الجزالة وحسنِ النظم المبلغ الذى بزّ فيه بلاغة كل ناطق وشقّ غبارَ كل سابق ، ولم يتجاوز الحد الخارج من قوى الفصحاء ، ولم يقع وراء مطامح أعين البصراء - إلا لأنه ليس من كلام البشر ، وإنما هو كلام خالق القُوَى والقُدَر (٢) . »

وإذا تأملنا وجدنا أن مجموع الأحرف المنزلة فى أوائل السور أربعة عشر

---

(١) مفردات الراغب الأصفهانى

(٢) نص الزمخشرى

حرفا ، وهى نصف حروف الهجاء ، يجمعها قولنا : (طرق سمعك النصيحة [١])

ونذكر هنا للتفكهة رأيين من آراء كبار المستشرقين فى معانى أوائل هذه السور : ذكر (پالمر) — مترجم القرآن — [٢] : « أن لِنُلْدِكه بإزاء معانى هذه الأحرف التى افتتحت بها سور القرآن رأيا بارعا ، ونظرية تدل على الفطنة والحذق ؛ إذ يرى أن هذه الأحرف كلٌّ مفتتح سورة منها طرّة أو طغراء أو مختصر من اسم من أسماء الرجال الذين أخذ عنهم زيد بن ثابت وأصحابه السورَ التى جمعوها وكتبوها وكونوا منها المصحف فى عهد عثمان ، فمثلا : الر ، طرة الزبير ؛ والمر ، طرة المغيرة ؛ وطه ، طرة طلحة ، وهكذا . ومثل هذا الرأى ذكره رُدويل [٣] »

وإن هذا الرأى لايثبت بإزاء مناقشة ، لأن هؤلاء الرجال الذين جمعوا المصحف الإمام إنما جمعوه فى عهد عثمان ، وكان القرآن نزل وختم نزوله قبل أن يفكر هؤلاء فى جمعه وكتابته ؛ ويغلب على الظن أن من يقول بهذا الرأى إنما يعتبر القرآن من تأليف محمد ومَن أتى بعد محمد (صلى الله عليه وسلم) ؛ فضلا عن أن كلمة (طه) لفظ حبشى ليس بعربي .

ويقول نولدكه أيضا : « من المحتمل أن تكون هذه الأحرف عناوين وضعت على الصناديق التى كانت فيها قطع الأديم والعُسُبِ واللخاف والرّقاع والأكتاف التى كان القرآن مكتوبا عليها لأول أمره . »

وذكر ردويل رأيا آخر ، فقال : « إن من المحتمل أن يكون معنى (ن) إشارة للحرف الذى به تنتهى سجعات هذه السورة . »

إطلاقات لفظ الكتاب فى القرآن :

الكتاب يطلق على اللوح المحفوظ ، كما فى قوله تعالى : « ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير » [٤]

---

(١) (حاشية الجمل) (٢) ص ١

(٣) مقدمته لترجمته القرآن . (٤) الحديد

وأطلق على التوراة وعلى الإنجيل وعلى الكتب التى تقدمت القرآن جميعها .

فإطلاقه على التوراة كما فى قوله تعالى : « ولقد آتينا موسى الكتاب والفرقان » ، « وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان » . وحيثما ذكر الله تعالى أهل الكتاب فإنما يريد بالكتاب التوراة والإنجيل .

وقال تعالى : « وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله . ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين . » (١)

فإنما أراد بالكتاب ههنا ماتقدم من كتب الله دون القرآن ، وقال تعالى : « هاأنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله . » (٢) أى بالكتب المنزلة ؛ فوضع ذلك موضع الجمع .

الاسم الرابع الفرقان : وهو متأخر فى الترتيب عن (الذكر) ، فالقرآن أولا ، ثم الذكر ثانياً ، والكتاب ثالثاً ، والفرقان رابعاً .

وهو مصدر أطلق على الفرق بين الشيئين والفصل بينهما ، قال تعالى : « وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان . » أريد به يومُ بدر ، فانه أول يوم فرق فيه بين الحق والباطل ، فالفرقان كلام الله تعالى ، لفرقه بين الحق والباطل فى الاعتقاد ، والصدق والكذب فى المقال ، والصالح والخاسر فى الأعمال وذلك فى القرآن ، والتوراة والإنجيل - قبل تبديلهما - قال تعالى : « وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون . »

وقد أطلق لفظ الفرقان والذكر على غير كتابنا : « ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان وضياء وذكرى للمتقين . »

أما لفظ (المصحف) فهو لم يطلق على القرآن المكتوب إلا فى عهد أبى بكر (رضى الله عنه) ، وهو لفظ حبشى (٣) فقد ذكر السيوطى (٤) :

« أخرج ابن أشتة فى كتاب المصاحف : « أنه لما جمعوا القرآن قال أبو بكر :

---

(١) يونس (٢) آل عمران

(٣) ص ١٤ الكلمات الحسان للأستاذ الشيخ بخيت .

(٤) الإتقان : ص ٥١

التمسوا له اسما . فقال بعضهم: السِّفر . قال : ذلك اسم تسمية اليهود . فكرهوا ذلك . فقال بعضهم : المصحف ، فإن الحبشة يسمون مثله المصحف . فكان أبو بكر أول من جمع كتاب الله وسماه المصحف. فالمصحف اسم للصحف المكتوبة المجموعة .»

وقال برْجشترَسرَ (١) :

« مُصحف أصله فى الحبشة مَصْحَف (Maskaf) أى الكتاب ، مشتقاً من صحف (Sahafa) أى كتب . فيدل معناه على أنه دخيل ، فإن العرب كما أخذوا الكتابة من جيرانهم الذين سبقوهم إلى التمدين يحتمل جداً أن يكونوا قد أخذوا منهم الأسماء الدالة على التمدين . فكان ينتظر إذن أن تكون لفظة المصحف آرامية ، أن الخط العربى آرامى الأصل ، غير أنا لا نجد في الآرامية كلمة تقابل (صحف) ، فنُظِرَ إلى اليمن وبلاد الحبش لأن الكتابة كانت معروفة مستقلة هناك أيضاً ، وكان بعض العرب يكتب بالحروف اليمانية قبل أن يألفوا الحروف الآرامية ؛ فهي إذن حبشية أو يمانية جنوبية . »

وإن المستشرقين الذين استولت عليهم الأهواء وتملكهم التعصب ، يجتهدون ما وسعهم التمحل وسترهم العلم ، أن يبرهنوا على أن القرآن من صنع محمد (صلى الله عليه وسلم) وأنه متأثر فى تأليفه بالتعاليم التى تلقاها عن اليهود والنصارى ؛ لذا هم لا يفتئون أن يذكروا أن ما فيه من الأخبار والقصص هو من وحى اليهود وتعاليم النصارى ؛ فهم لذلك يتلمسون للألفاظ الأسباب الواهية ليقولوا إنه اقتبسها من العبرية أو السريانية . من ذلك ما ذكره (سيل) فى مقدمته لترجمة القرآن (٢) حيث يقول : « إن لفظة القرآن مشتقة من قرأ أى تلا تلاوة فى اللغة العبرية ثم هى عند المسلمين اسم الكتاب بأسره ولكل جزء منه أيًا كان ، وهم فى ذلك متأثرون مقلدون لليهود فى إطلاقهم لفظ قرا ، أو يقرا ، على التوراة بجملتها أو على كل جزء منها (والمراد بالتوراة خمسة أسفار موسى فقط) وكذلك الشأن فى لفظة الفرقان .

(١) ، كتابه (التطور النحوى للغة العربية) ص ١٤٦

(٢) ب الفصل الثالث ص ٤٤

وللرد على ذلك نقول : إن هذه الألفاظ قد وجدت فى اللغة العربية قبل القرآن بزمن غير قليل ، يقول برجشترسر : « إن هذه الألفاظ وكل ما يرجع إلى الكتابة والقراءة ، قد دخلت اللغة العربية من اللغة الآرامية فى الأزمان السحيقة بناء على أن العرب أخذوا الخط نفسهَ من الأقوام الآرامية . ومن ذلك : كتب ، وكتاب ، وقرأ ، والنقطة ؛ وكثير من الألفاظ الدينية : كفرقان ، وصلوات بمعنى كنائس . »

وهذا يدل على أن استعمال كلمة القرآن والفرقان لا تدل على أن المسلمين قلدوا اليهود وتأثروا بلغتهم فى ذلك ، فإن هذا التأثر من اللغة كان سابقاً على الزمن الذى نزل فيه القرآن . وشبيه بهذه المسألة وجودُ ألفاظ أخرى فى القرآن أصلها رومى أو حبشى أو قبطى ، ولكن هذه تهمة قديمة ذكرها القرآن ورد عليها قال تعالى : « ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ، لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين . »

نزول القرآن

قال ابن تيمية فى رسالة له عنوانها « التبيان فى نزول القرآن » : النزول فى كتاب الله عز وجل ثلاثة أنواع : نزول مُقَيَّد بأنه منه ، ونزول مقيد بأنه من السماء ، ونزول غير مقيد لا بهذا ولا بذاك

فالأول لم يرد إلا فى القرآن ، كما قال تعالى : « والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزّل من ربك بالحق . » وقال تعالى : « قل نزّله روح القدس من ربك بالحق » فالقرآن منزل من الله تعالى وهو كلامه .

وأما النوع الثانى : وهو النزول المقيد أنه من السماء فقوله تعالى : « وأنزلنا من السماء ماء . » والسماء اسم جنس لكل ما علا ، فالسحاب يسمى سماء ، وهو المراد فى هذه الآية ، وقد بينه فى موضع آخر فقال : « أأنتم أنزلتموه من المزن ؟ » فعُلِمَ أنه منزل من السحاب

وأما المطلق ففى مواضع : منها ما ذكره من إنزال السكينة ، قال تعالى : « فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين . » وقوله : « هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين . » إلى غير ذلك

ابتدأ نزو' القرآن فى ليلة القدر وهى التى قال الله فيها : « إنا أنزلناه فى ليلة القدر . . . ليلة القدر خير من ألف شهر . » وقال فيها : « إنا أنزلناه فى ليلة مباركة إنا كنا منذرين . »

ولا نزاع فى أن هذه الليلة كانت فى شهر رمضان ـ قبل فرض صومه لأنه فرض بالمدينة ـ قال تعالى : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان . » وذلك فى السنة الحادية والأربعين من ميلاده ، وهو الشهر الذى كان محمد (صلى الله عليه وسلم) يعتكف فيه بغار حراء ويصومه ، وكان عمره (صلى الله عليه وسلم) إذ ذاك بالضبط ٤٠ سنة قمرية و ٦ أشهر و ٨ أيام . أما نفس الليلة التى ابتدأ فيها نزول القرآن ففيها خلاف كثير ، ويميل ابن اسحق صاحب السيرة (١) إلى أنها كانت الليلة السابعة عشرة من الشهر . وقد أشار القرآن إلى ذلك فى قوله تعالى : « إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان . » والمراد بيوم التقاء الجمعين يوم التقاء المسلمين والمشركين ببدر ، وهو صبيحة يوم الثلاثاء ١٧ رمضان من السنة الثانية للهجرة . ويوم الفرقان هو اليوم الذى ابتدأ فيه نزول القرآن . وكان ذلك فى ليلة الثلاثاء ـ والليلة عندهم تابعة لليوم الذى بعدها ـ فهما متحدان فى الوصف وهو أنهما جميعاً يوافقان يوم الثلاثاء ١٧ رمضان وإن لم يكونا من سنة واحدة . وقد حكى القسطلانى فى شرحه والبخارى ، خلافَ العلماء فى تعيين هذه الليلة على أقوال كثيرة . ومنها القول الذى مال إليه ابن اسحاق وقال إنه رواه ابن أبى شيبة والطبرانى من حديث زيد بن أرقم (٢) فالقرآن بدء نزوله وأوله كان فى شهر رمضان ، وفى ليلة القدر من رمضان . وهى ليلة السابع عشر على الأرجح .

والمواضع التى قصد فيها إلى ذكر الزمن الذى نزل فيه القرآن ثلاثة : أولها

(١) ص ١٥٧ الروض الأنف

(٢) تاريخ التشريع للمرحوم الخضرى بك

سورة القدر ، وثانيها سورة الدخان ، وثالثها سورة للبقرة ، مرتبة على حسب تاريخ النزول

ثم فتر الوحى مدة - فى أصح الروايات ثلاث سنين - لا ينزل فيها قرآن وإن كان جبريل يلقى فيها محمداً (صلى الله عليه وسلم) الفينة بعد الفينة .

ولم يكن ذلك الإبطاء إلا ليذهب عنه ما كان يجده من الرعب ، وليحصل له التشوق إلى العود ؛ ومن ثم حزن لذلك (عليه السلام) حزناً شديدا .

ثم نزل : « يا أيها المدثر قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر . . . » ثم حمى الوحى وتتابع .

فالمدثر من أول القرآن نزولا بعد فترة الوحى [1]

ففترة الوحى كانت بعد تبليغه (عليه السلام) أوائل سورة (اقرأ) وهذا هو مبدأ النبوة ، ثم أول ما نزل بعد فترة الوحى قوله تعالى : « يأيها المدثر . » وهو مبدأ الرسالة .

وقد وقع خطأ فى كتاب الدكتور هيكل ، حيث ذكر أن سورة (المدثر) نزلت قبل الفترة ، (والضحى) أول ما نزل بعد الفترة ؛ مع أن سورة الضحى عند جميع من رتبوا القرآن ترتيبا تاريخيا هى بعد (والفجر) ، ويظهر ذلك جلياً حتى من المصحف الرسمى الذى بين أيدينا .

ومن راجع البداية والنهاية وأسباب النزول للواحدى عرف أن سورة (والضحى) نزلت بعد فترة أخرى كانت يسيرة كما ثبت فى الصحيحين وغيرهما ؛ وذلك أنه اشتكى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فلم يقم ليلة أو ليلتين أو ثلاثا ، فقالت امرأة من قريش : ما أرى شيطانك إلا تركك . فأنزل الله : « والضحى والليل إذا سجى ، ما ودعك ربك وما قلى . » رواه البخارى ومسلم .

---

(١) ذكر ذلك الإمام الحافظ المفسر ابن كثير فى كتابه « البداية والنهاية » ص ١٧ ج ٣ ، وفى السيرة الحلبية ص ٢٦٠ - ٢٦٢ وفى تيسير الوصول ج ٤ - ص ٣٣٤ ، وفى المواهب اللدنية ص ٢١٦ ج ١ ، وفى العينى على البخارى ص ١٢٧ ج ٢٤ ؛ وفى كتاب « حياة محمد » ليل ص ٣٢ ، وفى أسباب النزول للواحدى

ويغلب على الظن أن الدكتور هيكل تابع فى هذا الرأى ابن اسحق ، مع أنه لو راجع المصادر الكثيرة لظهر له بعد موازنة الآراء ونقدها أن هذا الرأى خطأ .

ثم نزل القرآن بعد ذلك منجما مفرقا إلى السنة العاشرة من الهجرة ، والثالثة والستين من ميلاده (صلى الله عليه وسلم)

فأول آية نزلت « اقرأ باسم ربك » ، وآخر آية نزلت على أصح ماورد فى ذلك هى قوله تعالى من سورة البقرة : « واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله » والنبى (صلى الله عليه وسلم) لم يعش بعد نزولها إلا تسع ليال أو سبعاً أو إحدى وعشرين على اختلاف الروايات كما فى الفتح لابن حجر .

نزل القرآن الكريم منجما على حسب الوقائع ومقتضيات الأحوال فى بضع وعشرين سنة .

وكان تنجيمه مثار اعتراض المشركين لأنهم لم يألفوا إلا أن الكتب المقدسة تنزل جملة واحدة كما حدث فى التوراة والإنجيل ؛ فتكفل القرآن ببيان السر فى تنجيمه ، قال تعالى : « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ؟ كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا . » وقال فى آية أخرى : « وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا . »

فكان ينزل بحسب الحاجة : خمس آيات ، وعشر آيات ، وأكثر ، وأقل ، وقد صح نزول عشر الآيات فى قصة الإفك ، وصح نزول قوله : « غير أولى الضرر . » وهى بعض آية ، وكذا قوله : « وإن خفتم عيلة .... » إلى آخر الآية : وصح نزول سورة (المرسلات) جملة واحدة .

وقبل أن نمضى فى حديثنا عن النزول ، بدت لنا فى أثناء بحثنا ملاحظة جديرة بالتفكير والوقوف عندها ، وذلك أن جميع كتب السيرة ، وما ورد فى الصحيحين وما جاء فى الإتقان ، وفى كتاب أسباب النزول للواحدى ، وفى ترتيب مصحف على بن أبى طالب ، وترتيب القرآن على حسب النزول لردويل مترجم القرآن وكذا نولدكه صاحب تاريخ القرآن .

كل هذه المصادر تنص على أنه لم ينزل بعد أول سورة (اقرأ) إلا سورة (المدثر)، ليس هذا فقط، بل إن بعض الأخبار تنازع فيها سورةُ (المدثر) سورةَ (اقرأ) فى الأولية، ومع هذا فإن الترتيب المشهور هو أن سورة (المدثر) الرابعة، وهذا الترتيب إنما يستند إلى رواية من الروايات ولا أدرى مبلغ هذه الرواية من الصواب فى التاريخ، وقد أخذ المصحف الرسمى بهذا الرأى أيضاً. وأول سورة نزلت بمكة (اقرأ)، وآخر سورة (ويل للمطففين). وأول سورة نزلت فى المدينة (البقرة) وآخر سورة (براءة) على خلاف فى ذلك. وهذا الرأى هو أرجح الآراء.

أنواع النزول :

كان نزول القرآن على نوعين: نوع نزل ابتداء ونوع نزل عقب واقعة أو سؤال. و نزل القرآن فى ثلاثة أمكنة: فى مكة وضواحيها كمنى وعرفات والحديبية، وفى المدينة وضواحيها كبدر وأحد، وفى الشام أى بيت المقدس.

وأشهر الأقوال فى تعريف المكى أنه ما نزل قبل الهجرة، والمدنى ما نزل بعدها سواء نزل بمكة أم بالمدينة أم بسفر من الأسفار أو ضاحية من ضواحيهما

وإنما يرجع فى معرفة المكى والمدنى لحفظ الصحابة والتابعين، فلم يرد عن النبى (صلى الله عليه وسلم) فى ذلك قول.

وقد وقع خلاف فى بعض السور، واتفاق فى بعضها. وأسلوبهم فى الحكم على أن السورة مكية أو مدنية أنهم ينظرون إلى أولها؛ فما نزل أوله بمكة فهو مكى ولو نزلت بعد ذلك آيات فى المدينة، وما نزل أوله بالمدينة فهو مدنى، ولو نزل بعد ذلك آيات فى مكة.

مثال ذلك سورة (المزمل)، فإن صدرها نزل بمكة لا خلاف فى ذلك، ولكن قوله تعالى: «إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك، والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى ...» الى آخر السورة؛ فقد نزلت هذه الآية بالمدينة بعد نزول صدرها بمكة، وذلك حين فُرض قيام الليل فى مكة بقوله تعالى: «يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا.» قبل أن تفرض

الصلوات الخمس ، ثم نسخ بهذه الآية . وكذلك معنى قوله تعالى : « فاقرأوا ماتيسر من القرآن . » أى فصلوا ما تيسر لكم من صلاة الليل .

ثم نسخ هذا أيضاً بالصلوات الخمس ، إلا ما تطوع به .

وهناك أمارات قطعية على المكى والمدنى ، وأمارات أغلبية أكثرية . فالأمارات القطعية هى :

كل شىء نزل من القرآن فيه ذكر الأمم والقرون وقصص الأنبياء فإنما نزل بمكة ؛ وما كان فيه ذكر الفرائض والسنن والحدود فإنما نزل بالمدينة .

وكل سورة فيها قصة آدم وإبليس سوى البقرة فهى مكية .

وكل سورة فيها ذكر المنافقين فمدنية سوى العنكبوت ، فقد ورد فيها آيات مدنية مختصة بالمنافقين .

وكل سورة فيها (كلا) فهى مكية .

أما الأمارات الأكثرية فهى :

أن الأكثر فيما فيه (يا أيها الناس) أو (يا بنى آدم) مكى ؛ وما كان فيه (يا أيها الذين آمنوا) فهو مدنى .

والأكثر فيما فى أوله حرف تهج ، وما فيه سجدة أنه مكى .

☆☆☆

بقيت بحوث أخرى حول أسماء سوره ، وحول ترتيبه وجمعه ، وحول كتابته ، وحول المصاحف ، والأحرف السبعة وعلاقاتها باللهجات ، وحول القراءات السبع وعلاقاتها بالأحرف السبعة ـ سنتحدث عنها فى المقال التالى .

عبد الوهاب حموده

الشـــعر الحـــديث

بقلم على النجدى ناصف

فى مصر شرذمة من متأدبى الشباب ، يسمون أنفسهم الشعراء المجددين ، ويطلقون على شعرهم الشعر الحديث ، ويزعمون أنهم حملة رسالة يريدون أداءها ، وأصحاب مذهب فى الشعر جديد ، يريدون الناس على اعتناقه ونبذ سواه مما ألفوه ، وجمدوا عليه ؛ تقليداً ومشايعة للأقدمين .

ونستطيع من تتبع أقوالهم وكتاباتهم أن نعرف على التقريب وجهة مذهبهم والمبادىء التى يتألف منها ؛ فهم كما فهمنا من هذه وتلك ـ يدعون إلى الأمور الآتية

(١) الكف عن إحياء آثار الحضارة العربية والاستغناء عنها بالحضارة الغربية وثقافتها

(٢) وعدم التزام القافية والأوزان الموروثة فى الشعر المنظوم .

(٢) ومعالجة الشعر المنثور .

(٤) ونبذ الشعر الغنائى والاستغناء عنه بالتمثيلى والقصصى .

ونحن قبل أن نعرض بالنقد لهذه الأمور الأربعة ـ نقدم بين يدى الحديث عنها هذه الحقيقة : أن التجديد والدعوة إليه مما نرحب به ، ونود مخلصين لو تناول كل شأن من شئوننا الفكرية ، وكل ناحية من نواحى حياتنا الاجتماعية ؛ لأن الحياة تحول وانتقال ، والتغيير من سنن الطبيعة فى الأحياء ، ولكل عصر حال تلائمه وتجارى نوازعه ، وما كانت أساليب العيش ومذاهب التفكير التى تلائم أمة فى طور من أطوار حياتها ؛ لتلائمها فى طور آخر أو تفى بمطالب عيشها الجديد حتى تنحى عليها بالتسوية والتقويم والإصلاح لتكون معها على مجانسة ووفاق . وتصير منها إلى رضا واطمئنان .

فنحن إذاً لا ندعو إلى الجمود ، بل لا نعتقد أن الدعوة إليه تنجح أو أن نجاحها يطرد إذا هى لاقت بعض النجاح ؛ فما كانت الطبيعة لتقهر أو تغالب .

وإذاً ، هل هذا الذى تدعو إليه مدرسة الشعر الحديث ، من التجديد ؟ وهل من الخير أن نلبى دعوتها ونفعل مثل ما تفعل ؟

— ١ —

إن الدعوة لى قطع صلاتنا بالعرب وحضارتها ، والاستغناء بالغرب وحضارته - دعوة غير بريئة ولا خالصة لوجه الخير والصالح العام ، ولكنها مدخولة تنطوى على انتقاص العرب ، والنفرة من الانتساب إليها . وإلا فما معنى تبرؤ الأمة من سلفها ، وتعفيتها على آثار ماضيها ، وتخليها عن قوميتها ، وفنائها فى غيرها ؟ أليس هو الشعور بالمعرة تصيبها من الأصل الذى خرجت منه وخلفته فى تراثه ؟ أما ادعاء أن الأخذ بالحضارة الغربية لا يعدو الأخذ بالحضارة العربية ؛ أن كانت تلك تدرجاً لهذه وتحولا - فهراء بيّن وغثاثة مرذولة ؛ فليس بين الحضارتين اليوم اتفاق أو تشابه فى القواعد أو الفروع ، ولا فى الصبغة والاتجاه ؛ ولئن صح التسليم بزعمهم هذا فى الحضارة العربية بالإضافة إلى حضارة الفرس مثلا - لا يصح التسليم به فى حضارة الغرب بالإضافة إلى حضارة العرب ؛ لأن مخايل الأمم التى ورثتها العرب كانت تتمثل واضحة فى الحضارة العربية وآثارها الفنية والعلمية ، ولا كذلك العرب فى الحضارة الغربية الحاضرة ، إلا يسيراً يتندر الباحث بعلمه ولا يكاد يهتدى إليه إلا بعد طول المعاناة وكثرة الدرس والمراجعة . وربما لا يبلغ بحثه بعد كل أولئك مبلغ اليقين القاطع : لا يرقى إليه الشك ولا تأخذه الشبهة .

على أن إحياء الحضارة العربية ليس معناه التزام حدودها ، والتقيد بمراسمها ، ومجانبة الاقتباس الصالح من الحضارة الغربية ؛ كلا ، وإنما معناه الحرص على تراثنا الغالى أن يضيع بددا مع الأيام ، فيضيع بضياعه ماض مجيد ، وتنفصم روابط علينا عزيزة ، وليس هذا الحرص - كما سلف - بحائل بيننا وبين تنميته وتحرى أسباب الإضافة إليه ، والتغيير منه بما يجعله ملائماً لحالنا ، وافياً بطالبنا ، غير

مفرطين فى قوميتنا ، ولا مضيعين لشخصيتنا .

وكيف يطيب لنا الإعراض عن إحياء آثار الآباء والتنكر لعصورهم الزاهرة وتجاهل مجدهم الباذخ ، والمستعربون بين سمعنا وبصرنا دائبون فى خدمة ماضينا والتعريف به غير ضانين بجهد ولا مال ؟

فالأمر إذاً ، فى جملته وتفصيله ، لا يعدو أن يكون شعوبية ، بل شعوبية غالية . وهى كما لا يخفى ، مذهب قديم : نبت منذ ظهرت العرب على الأعاجم ، وأزالت ملكهم ، وورثتهم فى أوطانهم ، غير أن شعوبية الأمس كانت صريحة سافرة . وكان الحافز إليها هو التعصب للقومية ، والسخط على العرب ، أن فعلت بالأعاجم ما فعلت ؛ فكانت بذلك شعوبية واضحة ، مفهومة السبب والغاية . أما شعوبية اليوم ، فصانعة منافقة ، وليس لها معنى مفهوم ، إلا حب الخلاف واللجاج ، أو ضعف الشعور بالكرامة القومية ، وقلة الاعتداد بالعزة الوطنية ، فكلاهما يسلب المرء ثقته بأمته ، ويزين له باطلا أن الخير وصلاح الأمر فى الاستعارة والتقليد . لا فى العلاج والمحافظة ، فيتجرد من قوميته ، ويلتمس أخرى ينتحلها ، ويأخذ عنها ، ويفنى فيها .

أما زعمهم أن العالم قد تواصلت أممه ، وارتبطت أجزاؤه ، حتى كأن لا حدود ولا فوارق ـ فأحلام نائم ، أو أمانى غافل ؛ وليس أحب إلينا من هذه الأحلام أن تصح . أو هذه الأمانى أن تصبح حقيقة واقعة . وإلى أن يكون ذلك ـ إذا قدر له أن يكون ـ هل علينا أن نأخذ أخذ غيرنا فى الاعتداد بالقومية ، والثقة بالنفس ، والتعصب للوطن ؟ بل أليس هذا هو الواجب ، كما توحيه الوطنية ، ويمليه روح العصر ؟ بلى ، فليست أحداث العالم فى تقلبها وتنوعها ، ولا سياسة الأمم فى داخل بلادها وخارجها ـ إلا سلسلة أدلة على التعصب العريض ، لا يقتصر على القومية والوطن ، ولكنه يمتد إلى الجنسية والدم واللون كذلك ، بالرغم من بعض الظواهر الخادعة ، والدعاوى الملفقة إلى السلم والتعاون والإخاء ، كأن أسباب التواصل والتفاهم فى شيوعها وتقدمها وتنوعها ، لا تزيد الأمم إلا حذراً وتربصاً ، ولا تغريها بغير العداوة والتقاطع .

وهذه إحدى الأمم الشرقية ، التى حببت إليها الحضارة الغربية ، فأخذت بأساليبها فى جميع المرافق والشئون ـ لا يمنعها ذلك أن تتعصب لقوميتها ، وتحافظ على مقوماتها ؛ فأوجبت حكومتها فيما أوجبت ، أن تستعمل لغتها فى الكتابة حتى إنها لتهمل مايرد إليها بغيرها ، وحرمت على أصحاب المتاجر ونحوها أن يكتبوا أسماءهم وما إليها مما اعتادوا كتابته على وجوه محالهم ، بغير لغتها أيضاً .

— ٢ —

والقافية التى يدعون إلى نبذها ، وترك التقيد بها ، ما ذنبها إليهم ، أو جنايتها عليهم ، إذا كانت ثروتهم من اللغة ضئيلة ، لا تتيح لهم القدرة على اصطناعها ، كما يتاح لسواهم من الشعراء ؟ وليت شعرى إذا عطل الشعر من القافية ، فما تكون حاجتنا إلى الوزن ، نبقى عليه ونلتزمه ، مهما يكن نوعه ؟ ولم لا ندع الشعر حينئذ جانباً ، ونغنى عنه بالنثر ؟ أليس ذلك خيراً من المسخ الذى يعالجون ويريدوننا معهم على معالجته والاشتراك فيه باسم التجديد ، وما هو من التجديد فى قليل ولا كثير

ألا إن الشعر العربى هو هذا النمط الذى ترون ، موزوناً مقفى ، فمن قدر عليه ، وأطاق صياغته على وجهه ، وإلا ففى النثر مندوحة له وسعة ، ولا عليه ألا يكون شاعراً ، ومن يأب إلا المسخ والقلب ، فليصنع ما بدا له ، ولكن لا يسم عمله هذا شعراً عربياً ، والحياة جديرة أن تنفى الزيف كما ينفى الكير خبث الحديد .

ولسنا نرى محلا للشكوى من استعصاء القافية ، لأن العربية لغة مطواع ، كثيرة التصاريف ، لا يشق على المتضلع منها ، الخبير بأفانينها ، وأسباب الاشتقاق من مصادرها ، أن ينظم الشعر على صورته العربية ، وأن يطيل ما يشاء . وكيف اتسع الشعر العربى للحقائق العلمية ، تقيد به فى النحو والتجويد وغيرهما ، ثم يضيق بالأخيلة والصور الفكرية ، ومجال التغيير والتنويع فيها سهل فسيح ؟ أم كيف ينقاد الشعر هيناً ذلولا ، لنابغة المعرة ؛ فيودعه فلسفته الخالدة ، وآراءه العميقة فى المذاهب والديانات ونظم الاجتماع وما إليها ، ملتزماً فى القافية ما لا يلزم ، ثم يستعصى على هؤلاء إذا أرادوا تصوير شعورهم ، والتعبير عن

آرائهم، إن كان ثمة آراء؟ أليس ذلك دليلا على أن الأمر أمر المادة اللغوية ليس غير؟

ثم إن الطبيعة التى يتحدثون عنها كلما تحدثوا عن الشعر، ويحلو لهم تشبيه ظواهره بظواهرها ـ ليست فوضى لانظام لها ولاضابط، لكنها خاضعة لقوانين صارمة، تتقيد بها، وتنزل على حكمها فى غير هوادة.

— ٣ —

والشعر المنثور ليس جديداً فى العربية، لكنه قديم: سبق قدامى العرب إلى تسميته باسمه، وقدامى الأدباء إلى معالجته، وأتى منه المويلحى والبكرى وشوقى وغيرهم بنمط عجيب، يدل على غزارة المادة، وانطباع الملكة، وصحة الذوق، وتهيؤ الخيال.

رووا أن ولداً لحسان بن ثابت، وصف حيواناً لسعه، فقال: كأنه فى بردى حبرَة. فقال حسان: شعر ورب الكعبة! وسواء أقصد حسان بذلك أن قولة ابنه هذه شعر فى العرف العربى، يقاسم الشعر المنظوم، أم قصد به أنه يرجو أن يكون لابنه شان فى الشعر، بفضل ما آنس منه: من حسن الخيال، والقدرة على التصوير الشعرى. سواء أقصد هذا أم قصد ذاك ـ لا مرية أن النثر الذى يأخذ حظه من الرشاقة والخيال، يكون أشبه بالشعر، وجديراً أن يتسمى باسمه، لأن الخيال مادته وقوامه.

فلتمض إذا مدرسة الشعر الحديث إلى قوله، وليقله معهم من يشاء: من كل ذى قدرة وإحسان؛ فإنما نريد نمطاً كريماً: يجمع إلى سلامة الذوق، وشرف العبارة ـ إصابة المعنى، ووضوح الأسلوب، كالذى نراه فى بعض المقامات وما يشبهها، وفى حديث عيسى بن هشام، وصهاريج اللؤلؤ، وأطباق الذهب، ونحوها، على رعاية الطابع العصرى، والاحتفاظ بمميزات الشخصية الفنية.

أما هذا الذى يتحلل فيه صاحبه من قوانين اللغة: فيرسل الاستعارات على ما خيلت، غير معنى بعلاقة، ولا ملق إلى القرائن بالا؛ فإذا أخلاط متنافرة متدافعة: ينكر بعضها بعضاً، ويطغى بعضها على بعض ـ أما هذا، فلا خير فيه،

ولا فائدة منه . وأي قيمة لقول من يقول مثلا :

أراك ياحبيبتي تسبحين فى أغوار اللانهاية الأبدية الحائلة ، بأجنحة شاحبة ، لكنها علوية ؛ لأنها من الأمل الدافق المتهيب . ولكن . . . لا بأس . فقلبى الغامض البرىء لا يزال يغريه منك تلك الابتسامة الصامتة . التى تلوح فى شفق المستقبل الحائر بين أوكار الظلام السجين .

نعم ، فما هذا بقول ولا شبهة ، إن هذا إلا خبال الفوضى ، والجرأة البغيضة على حرمة القواعد المقررة .

— ٤ —

والدعوة إلى ترك الشعر الغنائى ، لا نعرف لها معنى مفهوماً ، ولا سبباً معقولا . فهل تراهم يصدون عنه ، لأنه قديم ؟ أو لأنه فن لاغناء فيه ، ولا حاجة إليه ؟ إن كان السبب هذا أو ذاك ، فعجيب جد عجيب . فما كانت جدة الموضوع لتلهم جديداً ، ولا قدمه ليملى قديماً . إنما الجديد وحى العبقرية ، ونفثة من نفثات الإلهام ؛ فالعبقرى الملهم لا يعدمه الجو المكنون يحلق فيه ، أو الأفق المجهول يقع عليه ، ويكشف عنه ، أو الصور المبتكرة يجتليها ، بين براعة العرض ، والتوفيق فى الإزجاء ، فإذا الموضوع كأطرف ما تكون الموضوعات ، مهما يكن شائعاً . والقول فيه معاداً .

والشعر الغنائى بعد هذا ، متنفس الوجدان ، ومرآة العواطف والشعور ؛ فهو من حقيقة الشعر فى المصاص والصميم . فكيف إذاً نجفوه ؟ وهل هذه سبيل الشعر التمثيلى والقصصى .

ألا رحم الله العرب ! لو أنها عالجت الشعر التمثيلى والقصصى دون غيرهما ، لكانت دعوة اليوم إلى نبذهما ، وإيثار الغنائى عليهما ، ولجحد المتجنون عليها كل مزية لها ؛ بسبب ذلك ، كما يفعلون اليوم ، أن قالت الشعر الغنائى ، ولم تقل التمثيلى والقصصى .

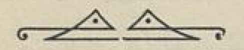
وبعد ، فقد ألقت الأمم الإسلامية ، وبخاصة العربية ـ مقاليد الزعامة اليوم إلى مصر ، واتخذت منها إما ما تقتدى به فى نهوضها ، وتأخذ عنه أساليب الثقافة

والعمران . فهل تحسب أنها اصطفتها على سائر الأمم ؛ لأنها أشدها قوة ، أو أكملها رقياً ، أو أنبهها فى عالم الفنون والعلوم ذكراً ؟ كلا ، فمصر ، وا أسفا ! ليست من هذا كله فى كثير ولكنها اصطفتها لهذا السعى الحميد لإحياء آثار الثقافة العربية ، وتيسير الانتفاع بمراجعها ؛ ثم لهذا الحفاظ على الطابع العربى فيما تأخذ به من ألوان الثقافة والتهذيب .

فهؤلاء السادة المجددون ، إذ يدعون إلى تجديدهم - إنما يريدون أن تلحق مصر بالأمم الغربية ذنباً لا يقام له وزن ، ولا يسمع له صوت ، ويطلبون أن تلقى تاج الزعامة العربية الإسلامية بعد إذ لبسته ، وتنزل عن عرشها الرفيع وقد تبوأته . وتلك خسارة كبيرة ، بحسبك لإدراك مبلغها ، وتصور جسامتها ، أن ترى إلى الأمم الكبرى ، كيف تتنافس جاهدة فى بسط نفوذها المعنوى ، وتعمل ما وسعها العمل ؛ لنيل ثقة الأمم الناهضة .

فليكفوا إذا - عافاهم الله - عن هذا النوع من التجديد ، وليأخذوا إن شاءوا على غير هذه الطريقة التى يعتسفونها خاطئين .

على النجدى ناصف



ملكتا الجمال العربى فى صدر الإسلام

بقلم على الجندى

(١)

قبل أن أتحدث عن هاتين الملكتين ، أرى من المناسب أن أبين معنى الجمال فى نظر القدامى ، لما له من الصلة الوثيقة بالموضوع الذى نحن بسبيله .

لا تكاد تفرق اللغة فى المعنى بين الجمال والحسن والملاحة وما إليهما ؛ ففى المعجمات اللغوية : الجمال : الحسن فى الخلق والخلق . والحسن : الجمال . والملاحة : الحسن . وملح الشىء (بالضم) ملاحة : بهج وحسن منظره . وقال سيبويه : الجمال رقة الحسن . ولكن علماء الجمال يعرفون كلا منها تعريفاً يميزه من الآخر ، وإن بقى عليه ظل من الغموض . فقالوا فى الحسن[1] : « إنه تناسب الخلقة ، واعتدال البشرة ، وصفاء المادة . » وقيل إنه مركب من الوضاءة والتناسب والصباحة ، وقيل إنه بياض اللون وسواد الشعر ، وكل منهما شطره . ومن ذلك قول سيدنا عمر : « إذا تم بياض المرأة وحسن شعرها ، فقد تم حسنها » وقول السيدة عائشة : « البياض شطر الحسن . »

وقالوا فى الجمال : إنه ما أخذ بالبصر — أى ما استرعى النظر وجذبه — وقالوا : إنه السمن ، لأن اشتقاقه من الجميل (وزان كريم) ، وهو الشحم المذاب ، فالجميلة : هى السمينة .

وفرقوا بين الجمال والملاحة فقالوا فى الجارية : جميلة من بعيد ، مليحة من قريب . فالجميلة هى التى تأخذ بصرك جملة على بعد ، فاذا دنت لم تكن كذلك . والمليحة : هى التى اذا كررت فيها بصرك زادتك حسنا .

يزيدك وجهه حسناً   إذا ما زدته نظرا

(١) تزيين الأسواق ١٨٦ ، ديوان الصبابة ٣٤ - ٣٥

وقالوا : المليحة : هى البيضاء ، لأنها مشتقة من الملحة ، وهى البياض ، ومثلها الصبيحة تشبيهاً لها بالصبح فى بياضه .

ويقول خالد (١) بن صفوان لامرأته — وقد قالت له : ما أجملك ! — أتقولين ذلك ومالى عمود الجمال ولا على رداؤه ولا برنسه ؟ قالت : ما عمود الجمال ؟ وما رداؤه ؟ ومابرنسه ؟ قال : أما عمود الجمال : فطول القوام وفىّ قصر . وأما رداؤه : فالبياض ولست بأبيض ، وأما برنسه : فسواد الشعر وأنا أصلع ، ولكن لو قلت : ما أحلاك وما أملحك ! لكان أولى . وهو بذلك لا يفرق بين الجمال والحسن ، ولكنه يفرق بينهما وبين الملاحة .

وصفوة أقوال الأقدمين : أن الجمال عندهم : مايدرك بالنظرة الأولى ، ويتعلق بالشكل العام ، كبسطة الجسم ، واعتدال القوام ، وجهارة المنظر ، وحسن السمت ؛ وأن الحسن يتناول كل الأجزاء بالتفصيل ، ويعرف بترديد النظر وفضل التأمل ، وأن الملاحة : هي ما يسمونه عذوبة النفس ، وخفة الظل ، وبراعة الظرف .

والذى تطمئن إليه النفس : أن الجمال والحسن والملاحة والقسامة والصباحة إلى آخر هذه الألفاظ أسماء لمعنى واحد لا يمكن تعريفه ، لأن مقاييسه تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأمزجة ، فلكل عصر جمال ، ولكل أمة جمال ، ولكل ذوق جمال ، ولعل هذا هو السر فى أن الشارع الحكيم أباح للخاطب أن يرى من مخطوبته وجهها وكفيها وقدميها ؛ فالوجه عنوان الجمال ، والكفان والقدمان مرآة البدانة والنحافة ، وبرؤيتها جميعها يتحقق للإنسان الشكل الذى يصبو إليه .

ولبعض الأقدمين أقوال تؤيد ما ذهبت إليه من أن الجمال أو الحسن لا يحد بحدود : قالوا : الحسن الصريح : ما استنطق الأفواه بالتسبيح . وقد ألم البهاء زهير بهذا المعنى فى قوله :

بهرت محاسنُه العقول فما بدا ... إلا وسبح من رآه وكبرا

وقالوا : الحسن معنى لا تناله العبارة ، ولا يحيط به الوصف ! .

---

(١) عيون الأخبار ج ٤ ص ٢٣

شيء به فتن الورى غير الذى ... يدعى الجمال، ولست أدرى ماهُوَه

ولم يفت الأقدمين أن يخصوا كل عضو بصفة ، قال ابن الأعرابى : تقول العرب : الحلاوة فى العينين ، والجمال فى الأنف ، والملاحة فى الفم ؛ وزاد عليه آخر : والظرف فى اللسان .

وقال بعضهم : الظرف فى القد ، والبراعة فى الجيد ، والرقة فى الأطراف والخصر ، والشأن كله فى الكلام ، وأحسن الحسن : ما لم يجلب بتزيين . قال بعض القدامى :

إن المليحة من تزين حَليْهَا ... لا من غدت بحليها تتزين

وقال غيره :

منعمة لم تلبس الوشى زينة ... ولكن أحبت أن تُزان الملابسُ

وقال بعض المحدثين :

إن المليحة من كانت محاسنها ... من صنعة الله لا من صنعة (البدُر)[1]

***

بعد هذا التصدير الفنى ، إخال القراء فى شوق إلى معرفة ملكتى الجمال العربى ، وبعبارة أدق : ملكة الجمال ، وملكة الملاحة ، وأبادر فأقول : إنهما ريحانتا العرب ، وزينة بنات حواء حسناً وأدباً وظرفاً ، السيدتان النبيلتان : عائشة بنت طلحة القرشية التَّيمِيَّة ، وسُكينة بنت الحسين القرشية الهاشمية .

والذى حكم لهما بجائزتى الجمال والملاحة ، أشعر شعراء الجمال ، وشاعر قريش : عمر بن أبى ربيعة القرشى المخزومى . وذلك أن سكينة [2] قالت لعائشة : أنا أجمل منك ! وقالت عائشة : بل أنا . فاختصمتا إلى عمر ، فقال : لأقضين بينكما ، أما أنت ياسكينة فأملح منها ! وأما أنت يا عائشة فأجمل منها ! فقالت سكينة قضيت لى والله !

ويمكننا أن ندرك مغزى هذا الحكم ، بعد أن عرفنا مما سلف الفرق بين الجمال والملاحة.

---

(١) جمع بدرة (بالضم) ، عربيتها الذرور

(٢) الأغانى ج ١٤ - ص ١٦٢

ومن هذه القصة الوجيزة ، نستنبط أن تنافس الحسان فى الحصول على جائزة الجمال ليست سنة مستحدثة ، وإنما هى بدعة قديمة أعاد التاريخ بها نفسه فى عصرنا الحاضر ، ولكن فى صورة شوهاء مزرية ، يعافها الشمم والإباء وتنكرها الفطرة السليمة !

وفى الحق أن عائشة وسكينة ، لم تنفردا بالجمال ، فقد وجد فى زمانهما من يساميهما فى ذلك ، مثل لُبابة [1] بنت عبد الله بن العباس الهاشمية ، وزينب بنت موسى الجمحية ، ورمله بنت الزبير الأسدية ، وأم القاسم بنت زكريا وأم اسحاق بنت طلحة التَّيميَّتان ، وعاتكة بنت يزيد ، وعائشة بنت عثمان ، وفاطمة بنت عبد الملك ، والثريا بنت على الأمويات ، ولكن فى الأوليَين مزايا أخرى كتبت لهما الشهرة الطائرة والصيت البعيد .

ومن غرائب الاتفاق أن يحوز ملكتى الجمال هاتين ، ملكٌ من ملوك الجمال — إن صح هذا التعبير — وهو مصعب بن الزبير بن العوام القرشى الأسدى ، والطيبون للطيبات ! .

كان مصعب من أجمل فتيان قريش وأسخاهم وأشجعهم ، يقول فيه جميل العذرى وقد رآه بعرفات : إن هاهنا شاباً أغار على بثينة منه وبينهما ثلاثة أيام !

ولما قتَل مصعب [2] المختار الثقفى ، أتى بأسارى من أصحابه فأمر بقتلهم بين يديه . فقام إليه أسير منهم فقال : أيها الأمير ، ما أقبح بك أن تقوم يوم القيامة إلى صورتك هذه الحسنة ، ووجهك المليح الذى يستضاء به ، فأتعلق بك وأقول : يارب سل مصعباً فيم قتلنى ؟ فاستحيا مصعب وأمر بإطلاقه ، فقال : أيها الأمير ، اجعل ماوهبت من حياتى فى خفض ودعة من العيش . قال مصعب : قد أمرت لك بثلاثين ألف درهم ! قال أشهدك أيها الأمير أن شطر هذا المال لعبد الله

---

(١) جميع هؤلاء : قرشيات

(٢) العمده لابن رشيق ج ١ - ص ٤٢

ابن قيس(١) الرقيات! قال: ولم ذلك؟ قال: لقوله:

إنما مصعب شهاب من اللـــه تجلت بنوره الظلماء

فضحك مصعب وقال: اقتض ما أذنا لك به، ولابن قيس عندنا مثله. فما شعر عبد الله بن قيس إلا وقد وافاه المال؛ ورب ساعٍ لقاعد!

وحين قتل (رحمه الله) أتى برأسه إلى عبد الملك بن مروان، فقال: متى تلد قريش مثلك! ثم قال: هذا سيد شباب قريش.

وقيل لعبد الملك: أكان مصعب يشرب الطلاء؟ فقال: لو علم مصعب أن الماء يفسد مروءته ما شربه.

وقال يوما(٢) لجلسائه: من أشجع الناس؟ فقالوا: أنت يا أمير المؤمنين. فقال: «أشجع الناس من جمع بين عائشة بنت طلحة، وسكينة بنت الحسين، وابنة الحميد بن عبد الله بن عامر، وابنة ريان بن أنيف الكلبي؛ وولى العراقين خمس سنين فأصاب ألف ألف، وألف ألف، وألف ألف؛ وزحف إلى الحرب فبذلت له الأمان والحباء والولاية والعفو عما خلص فى يده، فأبى قبول ذلك، وطرح كل ما كان مشغوفاً به من مال وأهل وراءه ظهرياً، وأقبل بسيفه قرماً يقاتل ما بقى معه إلا سبعة نفر، حتى قتل كريماً: ذاك مصعب بن الزبير.» والفضل ما شهدت به الأعداء.

وقد مهر مصعب كلا من عائشة وسكينة خمسمائة ألف درهم، وبذل فى الجهاز مثل ذلك. وأعطى على بن الحسين حين حمل اليه سكينة أخته أربعين ألف دينار!

ويظهر أن زواجه بهاتين الغانيتين أمنية كانت تعتلج فى نفسه فحققها الله له! روى ابن قتيبة(٣) الدِّينَوَرى: أنه اجتمع بفناء الكعبة، عبد الله بن عمر، وعروة ابن الزبير، ومصعب أخوه، وعبد الملك بن مروان. فقال لهم مصعب: تمنوا.

---

(١) يجوز أن تنون قيساً وتعرب الرقيات عطف بيان من ابن كأنه لقب له كقولك: عبد الله بطة، ويجوز إضافة قيس إلى الرقيات

(٢) جمعنا بين رواية الأغانى والنجوم الزاهرة ج ١ - ص ٢٩٠

(٣) عيون الأخبار ج ١ - ص ٢٥٨

فقالوا له : ابدأ أنت . فقال : ولاية العراق ، وتزوج سكينة وعائشة . فنال ذلك ! وتمنى عروة الفقه وأن يحمل عنه الحديث ! فنال ذلك ! وتمنى عبد الملك الخلافة فنالها ! وتمنى ابن عمر الجنة ! وكل ميسر لما خُلق له .

وسنقصر هذا المقال على ملكة الجمال عائشة ، ونتبعه بآخر عن ملكة الملاحة سكينة ؛ وفاء بحق الموضوع ، والله الموفق إلى الصواب :

***

السيدة عائشة بنت طلحة ، أبوها سيدنا طلحة [1] بن عبيدالله القرشى التَّيمى! أحد السابقين الأولين ، وأحد العشرة الكرام المشهود لهم بالجنة ، وأحد أغنياء الصحابة ؛ كانت غلته [2] من العراق ألف دينار فى اليوم ، ومن ناحية السَّرَاة أكثر من ذلك ، وكان كريماً يبارى الريح المرسلة ؛ يقول جابر : صحبت طلحة ابن عبيد الله ، فما رأيت رجلا أعطى للجزيل منه من غير مسئلة

أما أمها فهي أم كلثوم بنت أبى بكر الصديق (رضى الله عنه) فتكون عائشة تيمية أبا وأما . ومن المفيد أن نعرف ، أن تيما بطن من بطون قريش [3] البطاح العشرة وهم : هاشم ، وأمية ، ونوفل ، وعبدالدار ، وأسد ، وتيم ، ومخزوم ، وعدى ، وجمح ، وسهم .

كانت عائشة كما قدمنا جميلة جمالا فائقا يثنى إليه أعنة الحدق ، ولكن كان فيها عيبان كما تقول خاطبتها : عيب يواريه الخمار ، وهو كبر الأذنين ؛ وآخر يواريه الخفُّ ، وهو كبر القدم . وهناك شىء ثالث يعدّ عيبا فى هذا العصر ، وهو فرط السِّمَن ؛ فقد كانت لبدانتها إذا همّت بالقيام تُنهضها جاريتان لها ! ولكن الناس فى العصور الخالية كان يعدّون ذلك من سِمات الجمال فى المرأة ! يقول ابن شبُرُمة : ما رأيت لباسا على رجل أزين من فصاحة ، ولا رأيت لباسا

---

(١) الطلحات المعروفين هم : طلحة الجود ، وطلحة الندى ، وطلحة الخير ، وطلحة الدراهم ، وطلحة الطلحات . راجع أنسابهم فى شرح المفصل لابن يعيش ج ١ - ص ٤٧

(٢) مقدمة ابن خلدون

(٣) العقد الفريد ج ٢ - ف ٢٠٣

على امرأة أزين من شحم ! ويقول على (كرم الله وجهه) : لا تحسن المرأة حتى تُروى الرضيع ، و . . . ؛ وكانوا لذلك يستملحون ضخامة الثدى ! وفى ذلك يقول الحجاج : لا يحسن نحر المرأة حتى يعظم ثدياها ! ويقول المرّار العدوى :

صَلْتة الخد طويل جيدها ضخمة الثدى ولمّا ينكسر

ويقول ابن أبى ربيعة فى مدح السمن عامة :

قَطُوف من الحور الأوانس بالضحا متى تمش قِيسَ الباع[1] من بُهْرها تربو

ولأعشى قيس قطعة غزلية فى هُرَيْرة يدور معظمها على وصفها بالسمن والكسل ، منها :

غراء فرعاء مصقول عوارضها تمشى الهوينى كما يمشى الوجى الوحلُ

ومع استفاضة بدعة (النحافة) فى زماننا ، فلا يزال للسمن أنصار ، على رأسهم (ماى وست) كوكب الخيالة المشهور .

ونحبّ بهذه المناسبة أن ننصح لفتياتنا ألا يسرفْن فى اخترام أجسامهن ! فإن السمن المتّزن يدرأ عن البدن غوائل الأمراض ، والنحولُ المفرط ينبه كثيرا من الأدواء ، ويعرّض الصدر لأمراض الرئة ، والخير كل الخير فى القصد والاعتدال .

ولا تغل فى شىء من الأمر واقتصد كلا طرفىْ كل الأمور ذميم

ونعود إلى جمال عائشة فنقول : إنه حدَث يوما أن نازعت زوجها عند أبى هريرة ، فسقط خِمارها عن وجهها ، فقال أبو هريرة : سبحان الله ! ما أحسن ماغذّاك أهلك ! لكأنما خرجت من الجنة ! وقال لها مرة : ما رأيت وجها أحسن من وجهك إلا وجه معاوية أول يوم خطب فيه على مسجد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) . فقالت عائشة : والله لأنا أحسن من النار فى الليلة القرّة فى عين المقرور !

---

(١) البهر بالضم : تتابع النفس ، وتربو : يعلو نفسها . والمعنى أن أنفاسها تنهر ويأخذها الربو إذا مشت قدر باع لضخامتها .

ونظر إليها ابن أبى ذئب (وهى تطوف بالبيت) فقال لها : من أنت يرحمك الله ! ؟ فقالت :

من اللّاء لم يحججن يبغين حِسْبة ولكن ليقتلن البرىء المفضّلا

فقال لها : صان الله ذلك الوجه عن النار ! فقالت : أفتنتك يا أبا عبد الله ؟ قال : لا ، ولكن الحسنَ مرحوم[1] . وقد أضفى هذا الجمالُ على عائشة ثوبَ التيه والخُيَلاء ! وكلامها لأبى هريرة وابن أبى ذئب يرينا كيف يهزّ الزّهو أعطاف الحسان ! ولا تثريبَ عليها فى ذلك ، فهو من شيم الغانيات قديما وحديثا ، ورحم الله أستاذنا عبد المطلب حيث يقول :

على النيل من سِيف الجزيرة جؤذرُ هفا تائهاً ، والحسنُ بالتيه يأمرُ

ومن آثار هذه المخيلة والإدلال ، أنها كانت تنزع إلى السفور نزوعا واضحا ! وقد شقّ ذلك على زوجها مصعب فعاتبها كثيرا ، فكان جوابها : إن الله (تبارك وتعالى) وسمنى بمِيسم جمال أحببت أن يراه الناس فيعرفوا فضله عليهم ! ووالله مافىّ وصمة يقدر أن يذكرنى بها أحد ! وقد طالت منازعة مصعب لها فى ذلك ، ولا ندرى لمن كُتِب النصر .

ولا شك أن عائشة مأجورة مشكورة على حسن نيتها ، وأحسب أن الذى شجّعها على ذلك ، شدة ثقتها بنفسها ، واعتقادها الخير فى أهل عصرها . وهى على كل حال لم تتعدّ حدود الشرع ، فالمراد بالحجاب فى الإسلام عدم الاختلاط ، وقد أفتت مشيخة الأزهر مسلمى الهند حديثا : بجواز كشف المرأة المسلمة وجهها وكفيها .

ولم تشذّ عائشة كذلك عن طبيعة بنات جنسها ؛ فمن القواعد المسلّمة ، أن أكثر النساء ميلا إلى السفور ، أوفرهن نصيبا من الملاحة ! وإلى ذلك يشير عمر ابن أبى ربيعة بقوله :

* وجوهٌ زهاها الحسن أن تتقنّعا *

---

(١) العقد الفريد ج ٤ - ص ١٦٥ وقد عزاها الحصرى فى زهر الآداب لامرأة مجهولة الاسم ج ١ - ص ٢١٠

وقريب من هذا قول الحسن بن وهب :

ما لمن تمت محاسنه أن يعادى طَرْف من نظرا
لك أن تبدى لنا حَسَنا ولنا أن نعمل البصرا

ولا يعد جمال عائشة مستغربا ! فقد نبتت فى بيت جمال ؛ كانت أمها أم كلثوم جميلة ، وكانت أختها جميلة ، وكان أبوها طلحة من أجمل الرجال ! ؛ قالوا : إن امرأة رأت الزبير ، فقالت : من هذا الذى كأنه أرقم يتلمّظ ! ، ورأت عليا فقالت : من هذا الذى كأنه كُسِر ثم جُبِر ! ورأت طلحة فقالت : من هذا الذى كأنه دينار هرقلىّ .

وخطب عمر والزبير وعلىّ أم أبان بنت عتبة بن ربيعة ، فردّتهم جميعا ، ثم خطبها طلحة فتزوجها ، فقال لها على : رددت من رددت منا ، وتزوجت ابن بنت الحضرمىّ ، فقالت : القضاء والقدر ! فقال على : أما إنك قد تزوّجت أجملنا مَرْآةً وأكثرنا خيرا على أهله .

وأول أزواج عائشة ، ابن خالها عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر ، زوجتها به خالتها السيدة عائشة أم المؤمنين . وكان أولادها منه ، وهم : عمران وبه تكنى ، وعبدالرحمن ، وأبو بكر ، وطلحة ، ونفيسة ، وقد تزوج نفيسة ، الوليد بن عبدالملك وكان ابنها طلحة من أجواد قريش ، وفيه يقول الحزين الدؤلى :

أبوك الذى صدّق المصطفى وسار مع المصطفى حيث سارا
وأمك بيضاء [1] تَيْمِية إذا نُسِبَ الناس كانت نضارا

ثم تزوجها مصعب فقتل عنها ، ثم تزوجها عمر بن عبد الله التيمى ، فبنى عليها بالحيرة ، ومُهّدت له يوم عرسه فُرُش لم يُرَ أحسن منها ؛ فلما مات ناحت عليه وهى قائمة ، وكانت العرب إذا ناحت المرأة قائمة على زوجها ، علمت أنها لاتريد أن تتزوج بعده ، فقيل لها : يا عائشة لم تصنعى هذا بأحد من أزواجك .

(١) يقصد أنها واضحة مشهورة ، والعرب تريد ذلك حين تمدح بالبياض ، كما قرره أبو هلال العسكرى فى ديوان المعانى ج ١ - ص ٣٧

قالت : إنه كان فيه ثلاث خلال لم تكن فى أحد منهم : كان سيد بنى تَيْم ، وكان أقرب القوم بى قرابة ، وأردت ألا أتزوج بعده .

وعائشة وإن كانت قرشية يصدق عليها الحديث الشريف : « خير نساء ركبن الإبل ، نساء قريش ؛ أحناهنّ على ولد فى صغره ، وأرعاهُنّ على بعل فى ذات يده . » إلا أنها كانت عَسِرَة الأخلاق شَكِسة الطبيعة ، وهى شنشنة عُرِفت من نساء تيم ، فقد كنّ أشرس خلق الله ، وأحظاهن عند الأزواج ! ولا ندرى لذلك سبباً إلا هذا الحسن الرائع الذى يمحو السيئات !

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد جاءت محاسنه بألف شفيع

كانت أختها أم اسحاق عند الحسين بن على ، وكان يقول : والله لربما حملت ووضعتْ وهى لى مصارمة لا تكلمنى ! وكانت بنت أخيها أم سلمة بنت محمد طلحة ، عند عبد الله بن الحسن ، فكانت تقسو عليه وتغلظ له ، ويفرَق منها ولا يخالفها ! فرأى منها يوماً طِيب نَفْس ، فأراد أن يشكو إليها قسوتها ، فقال لها : يا بنت محمد ، قد أحرق والله قلبى . . . فحدّدت النظر إليه وجمعت وجهها ، وقالت : أحرق قلبَك ماذا ؟ فخافها فلم يقدر أن يقول لها : سوء خُلُقك ، فقال : حب أبي بكر الصديق ! ! فأمسكت عنه .

ولعائشة فى ذلك نوادر تبلغ منتهى الغرابة ! حتى قالوا : إنها كانت تكون لمن يجىء عندها فى رقيق الثياب ، فإذا قيل جاء الأمير ، ضمت عليها مِطرَفها وقطّبت وجهها !

صارمت زوجها الأول عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر ، وخرجت من دارها غضبى تريد السيدة عائشة ، فمكثت عندها أربعة أشهر ، وقيل لزوجها : طلقها فأنشد :

يقولون طلقها لأصبح ثاويا مقيما علىّ الهمُ أحلام نائم

وإن فراقى أهلَ بيت أحبهم لهم زُلفة عندى ـ لإحدى العظائم

وتوفى عبد الله وهى عنده ، فما فتحت فمها عليه ! وكانت السيدة عائشه تعد عليها هذا فى ذنوبها .

وحوادثها مع مصعب أعجب وأغرب! حدث يوماً أنها آلت منه بفعلها هى! وقعدت فى غرفة منفردة، فجهد مصعب أن تكلمه فأبت، فبعث إليها الشاعر ابن قيس الرُّقيّات (١)، فسألها كلامه، فقالت: كيف بيمينى؟ فقال: ههنا الشعبى فقيه العراق فاستفتيه، فدخل إليها فأخبرته، فقال: ليس هذا بشىء، فقالت: أتحلنى وتخرج خائباً، فأمرت له بأربعة آلاف درهم! وقال ابن قيس الرقيات لما رآها:

مخبوءة برزت لتقتلنا مطلية الأصداغ بالمسك

عجبا لمثلك لا يكون له خرج العراق ومنبر الملك

وغضبت على مصعب يوما، فشكا ذلك إلى أشعب المعروف بالطمع، فقال: مالى إن رضيتْ؟ قال: حكمك! قال عشرة آلاف درهم! قال: هى لك. فانطلق أشعب إليها، فقال: حاجة قد عرضت تقضين بها حق، وترتهنين بها شكرى. قالت: ماذا تريد؟ قال: قد جعل الأمير لى عشرة آلاف درهم، إن رضيت عنه. قالت: ويحك! لا يمكننى ذلك!. فقال أشعب: بأبى أنت ارضى عنه حتى يعطينى، ثم عودى إلى ماعودك الله من سوء الخلق! فضحكت عائشة ورضيت عنه

وقاطعته مرة فطالت المقاطعة، وشق ذلك عليها وعليه، وكانت لمصعب حرب فخرج إليها ثم عاد ظافرا، فشكت عائشة مقاطعته إلى مولاتها، فقالت: الآن يصلح أن تخرجى إليه، فخرجت فهناته بالفتح، وجعلت تمسح التراب عن وجهه! فقال لها: أشفق عليك من رائحة الحديد! فقالت: لهو والله عندى أطيب من ريح المسك إذا ذفر! وسبحان من أنطقها بهذه الكلمة!.

ولما أسرفت فى إدلالها على مصعب، شكا ذلك إلى كاتبه ابن أبى فروة، فقال: أنا أكفيك هذا إن أذنت لى. قال: افعل ماشئت فإنها أفضل شىء نلته من الدنيا. فاستأذن عليها ابن أبى فروة ليلا ومعه أسودان. فقالت: أفى مثل تلك الساعة؟

---

(١) نسب قيس إلى الرقيات لأنه تزوج عدة نسوة، أسماؤهن كلهن رقية فى قول الأصمعى. وقال غيره: أسماء جداته كلهن رقية. وقال السكرى: شبب بعدة نساء تسمين رقية وقيل: سمى رقيات كما يسمى الرجل بمساجد، شرح المفضل ج ١ ص ٤٨

قال : نعم . فأذنت له فدخل ، فقال للأسودين : احفرا ههنا بئرا . فقالت له جاريتها : وما تصنع بها ؟ قال : شؤم سيدتك ، أمرنى هذا الفاجر أن أدفنها حية ، وهو أسفك خلق الله لدم حرام . فقالت عائشة : أنظرنى حتى أذهب اليه . فقال : هيهات ، لا سبيل إلى ذلك . وقال للأسودين : احفرا ، فلما رأت منه الجد بكت ، ثم قالت : يابن أبى فروة ، إنك قاتلى مامنه بد ؟ قال : نعم ، وإنى سأعلم أن الله يجزيه بعدك ، ولكنه قد غضب ، وهو كافر الغضب . قالت : فى أى شىء ؟ قال فى تدللك عليه ، فقد ظن أنك تبغضينه وتتطلعين إلى غيره حتى جن . قالت : أنشدك الله إلا ما عاودته ! قال : أخاف أن يقتلنى . فبكت وبكى جواريها ، فقال : قد رققت لك . وحلف أنه قد يغرر بنفسه فى الرجوع إلى الأمير ، ثم قال : فماذا أقول له ؟ قالت تضمن عنى ألا أعود أبداً ، وأعطته المواثيق على ذلك ، فقال للأسودين : مكانكما . وأتى مصعباً وأخبره ، فقال : استوثق منها بالأيمان . قال : قد فعلت . وصلحت بعد ذلك لمصعب .

أما المسكين حقاً فهو آخر أزواجها وأقربهم إليها عمر التيمى ، فقد كان شديد الغيرة بطبعه ، فاستغلت ذلك فى إيلام نفسه وتنغيص عيشه : دخل عليها مرة وقد ناله حر شديد وغبار ؛ فقال : انفضى عنى التراب . فأخذت منديلا ، وجعلت تزيله عنه وتقول : ما رأيت الغبار على وجه أحد قط ، كان أحسن منه فى وجه مصعب ! فكاد يموت غيظاً ؛ وكثيراً ما كانت تصف له جمال مصعب فيصعق من الكمد .

ومن أروع فكاهاتها معه : أنه كان قد جمع بينها وبين رملة الخُزاعية - وهى امرأة حسنة الجسم ، إلا أنها جهمة الوجه ، عظيمة الأنف - فأخذ عمر يوما يحدثها بحروبه ، فيقول : فعلتُ فى قتال الخوارج كذا وكذا ، وصنعت كذا وكذا ، ويفخر ماشاء بشجاعته وإقدامه ! . فقالت له عائشة : أنا أعلم أنك أشجع الناس ! وأعرف لك يوما هو أعظم مما ذكرته ! قال : وما هو ؟ قالت : يوم اجتَلَيْتَ رملة ، واستطعت أن تقدم على وجهها وأنفها ...

ولكن هذا الصلف والعُجْب كان يذكى لوعة الحب فى قلوب أزواجها ،

ويزيدهم شغفا بها، وصبوة إليها. وانّ الإنسان ليقضى العجب كيف استطاعت عائشة - وإن أوتيتْ شطر الحسن - أن تستعبد رجلا مثل مصعب، آثران يحزّ الحسام رقبته على أن يفرّ من الميدان أو يقبل الأمان. ولكنّه سحرُ الجمال الذى يغطى على البصائر والأبصار.

زيدى أذى مهجتى(١) أزدْك هوًى فأجهلُ الناس عاشق حاقدْ

يقول الهيثم بن عدىّ: إنّ رجلا أنشد مصعبا قول جميل فى بثينة:

ما أنس لا أنس منها نظرة سلفت بالحجر يوم جلتها أمُّ منظور

فقال مصعب: لوددت أنى عرفت كيف جلَتها. فقيل له: إن أم منظور حية، فأرسل إليها. فلما حضرت، قال لها: أخبرينى عن قول جميل. (البيت السابق)

قالت ألبستها قلادة بلح، ومخنقة بلح واسطتها تفاحة، وضفرت شعرها، ووضعت فى فرْقها شيئا من الخلوق، ومرّ بنا جميل فجعل ينظر اليها بمؤخر عينه - وهو راكب ناقته - حتى غاب عنّا.

فقال مصعب قسم عليك إلا ما جلوتِ عائشة مثلما جلوتِ بثينة. ففعلت، وركب مصعب ناقة، وأقبل عليهما، وجعل ينظر الى عائشة بمؤخر عينه حتى غاب عنهما. ثم رجع. والحب جنون . . .

ويقول الشعبى: إنى لفى المسجد نصف النهار، إذ سمعت باب القصر يفتح، وإذا مصعب ومعه جماعة، فقال: ياشعبى اتبعنى، فاتبعته فأتى دار موسى بن طلحة فدخل مقصورة، ثم دخل أخرى وأنا وراءه، وإذا بامرأة فوق سرير، عليها من الحلىّ والجواهر مالم أر مثله، ولها وجه حسن من الحلى الذى عليها! فقال: ياشعبى، هذه ليلى التى يقول فيها الشاعر

وما زلت من ليلى لدن طرشا ربى إلى اليوم أخفِى حبها وأداجن

وأحمل فى ليلى لقوم ضغينة وتُحمل فى ليلى علىّ الضغائن

هذه عائشة بنت طلحة! فقالت: أما إذ جلوتنى عليه فأحسن إليه. فلما كان

---

(١) المتنبى

العشى رُحتُ إليه فسلمت ، فقال : أدن منى . فدنوت حتى وضعت يدى على مرافقه ، فقال : هل رأيت ذلك الإنسان قط ؟ قلت : لا والله ! قال : أفتدرى لما أدخلتك إليها ؟ قلت : لا . قال : لتحدث بما رأيت ! ثم قال : ياشعبى ، ما ينبغى لمن جليت عليه عائشة أن ينقص عن عشرة آلاف ! فأمر لى بها وبثلاثين ثوباً وبقارورة من الغالية ! فقيل للشعبى فى ذلك اليوم : كيف الحال ؟ قال : وكيف حال من صدر عن الأمير ببدرة وكسوة وقارورة غالية ، وبرؤية وجه عائشة بنت طلحة !

أمّا ترف عائشة وأبهتها وثروتها وسخاؤها ، فتجل عن وصف الواصفين ويمكن أن نقول إجمالا : إنها كانت ملكة غير متوجة .

كانت تقيم بعد أن تأيمت سنة بمكة وسنة بالمدينة ، وتخرج إلى مال عظيم لها بالطائف وقصر هناك فتتنزه فيه وتجلس العشيات ، فيتناضل بين يديها الرماة وينشدها الشعراء ، فتملأ أيديهم بالمال ، ويؤمها النساء القرشيات مع مولياتهن فتغمرهن بالهدايا والألطاف .

وكانت تحج على ستين بغلا عليها الهوادج والرحائل ، وقد حدث أن عاتكة بنت يزيد بن معاوية زوج عبد الملك بن مروان ، وأعرق امرأة فى الملك [١] والخلافة أرادت الحج ، فقال لها عبد الملك : ارفعى حوائجك واستظهرى فإن عائشة بنت طلحة تحج ، فبالغت عاتكة فى الاستعداد ، حتى إذا كانت بين مكة والمدينة قابلها موكب هائل ضغطها وفرق جماعتها ! فقالت . أظنها عائشة ، فقالوا هذه خازنتها ! ثم جاء موكب آخر أعظم منه ! فقالوا : عائشة . عائشة ! وإذا هى ماشطتها ! ثم جاءت مواكب أخرى على سننها ، ثم أقبلت كوكبة فيها ثلاثمائة راحلة عليها القباب والهوادج ! فقالت عاتكة : ماعند الله خير وأبقى !

---

(١) كان يزيد أبوها خليفة ، وجدها معاوية الأول خليفة ، وأخوها معاوية الثانى خليفة ، وزوجها عبد الملك خليفة ، وأولاد زوجها الوليد وسليمان وهشام خلفاء .

وقد بلغ من ترف عائشة أن مصعب دخل عليها يوماً وهى متصبحة (١) ومعه ثمانى لؤلؤات قيمتها عشرون ألف دينار ، فأيقظها من نومها ، ونثر اللؤلؤ فى حجرها ، فقالت له : نومتى كانت أحب إلى من هذا اللؤلؤ . وكانت إلى ذلك كله عالمة أديبة راوية نقادة ذات بَصَر بالشعر والغناء ، وتفطن لموطن الحسن فيهما . أنشدت يوماً قصيدة ابن قيس الحدادية التى أولها :

أجدَّك إنْ نُعم نأتْ أنت جازع قد اقتربت لو أن ذلك نافع

وبحضرتها جماعة من الشعراء ، فقالت : من يقدر منكم أن يزيد فيها بيتا واحداً يناسبها ويدخل فى معناها ، فله حلتى هذه . فعجزوا جميعا ! .

ووفدت على هشام بن عبد الملك ، فأرسل إلى مشايخ بنى أمية : أن عائشة هنا فتعالوا واسمروا عندى ، فحضروا ، فما تذاكروا شيئا من أخبار العرب وأشعارها إلا فاضت معهم فيه ، وما طلع نجم أو تغور إلا سمته ! فقال هشام : أما الأول فلا أنكره ، وأما الثانى فمن أين لك؟ قالت : أخذته عن خالتى عائشة ، فأمر لها بمائة ألف درهم — على بخله — وردها إلى المدينة .

ولم يكن بد أن يستثير جمال عائشة فضول شاعرين من شعراء قريش ، وكلا بالجمال ينشدانه حيث يجدانه : وهما عمر بن أبى ربيعة والحارث بن خالد المخزوميان وكانت عائشة إذا حجت ترفق بعمر وتداريه وتجهد ألا يراها ، ولكنها لم تغلبه — والشمس لاتخفى بأى مكان — . ولما أكثر من النسيب بها مشى إليه ولد أبى بكر الصديق ، وولد طلحة ، فكلموه فى ذلك ، فحلف ألا يذكرها فى شعره فكان يكنى عن اسمها فى النسيب ، وبهذا أرضاهم وأرضى طبيعته الفنانة .

وكان حب عمر إياها ذلك الحب اللاهى العابث الذى ينبع من اللسان لا القلب والذى عرف به عمر ، أما ابن عمه الحارث فكان صادق الصبوة عميق الوجد ، وأكثر أشعاره الغزلية فيها ، وقد ضحى من أجلها بمنصبه ، وارتكب

---

(١) نائمة نومة الصبح ، ولا ينامها غير المترفات

أكبر حماقة تصدر عن إنسان ، وبخاصة فى ذلك العصر الذى كان للدين فيه سلطانه على النفوس .

وذلك أن عائشة حجت وهو وال على مكة ، فأرسلت اليه : أخّر الصلاة حتى أفرغ من طوافى . فأمر المؤذنين فأخروا الصلاة بين صياح الناس وإنكارهم ، حتى فرغت من الطواف ، فأعظم أهل الموسم ذلك ، وعزله عبد الملك بن مروان وكتب إليه يؤنبه ، فقال الحارث : والله ما أهون غضبه إذا رضيت ؛ والله لو لم تتم طوافها إلى الليل لأخرت الصلاة . وقال فى ذلك شعراً جميلا منه :

لم أرحب بأن سخطت[1] ولكن مرحبا إن رضيتِ عنا وأهلا

إن وجهاً رأيته ليلة البد ر عليه انثنى الجمال وحلا

وجهها البدر لو يُسَال[2] به المز نُ من الحسن والجمال استهلا

جعل الله كل أنثى فداء لك ، بل خدّها لرجلك نعلا

ولما مات زوجها الأخير ، قيل للحارث : ما يمنعك من التزوج بها الآن ؟ فقال : لا يتحدث والله رجال من قريش أن نسيبى بها كان لشىء من الباطل . وهكذا يكون حب الكرام .

ولسنا ندرى بالتفصيل مبلغ العلاقة بين عائشة وضرتها سكينة ، وهى ناحية شائقة كنا نود أن يجلوها لنا التاريخ ؛ وكل ما نعرفه أن سكينة كانت تلقب عائشة بذات الأذنين ، وقد سلف لنا أنها كانت كبيرتهما .

ونعرف كذلك أنهما حجا معاً فى بعض السنين ، وكانت عائشة أحسن عدة وثقلا[3] ، فقال حاديها :

عائش ياذات البغال الستين لازلت ما عشت كذا تحجين

فتألمت سكينة، فنزل حاديها فقال :

(١) الضمير يعود على عبد الملك

(٢) يسأل ، سهلت الهمزة على لغة الحجاز

(٣) بفتح الثاء والقاف : متاع المسافر وحشمه

عائش هذى ضرة تشكوكى   لولا أبوها ما اهتدى أبوكى

فامرت عائشة حاديها أن يكف فكف !

وقد عرفنا من قبل أنهما احتكمتا إلى ابن أبى ربيعة : أيتهما أجمل ؟ فأرضاهما معاً !

من هذه النتف اليسيرة يمكننا أن نفهم أن العلاقة بينهما كانت علاقة الضرة بالضرة ؛ ولا ينتظر منهما غير ذلك ، « فقد كتب الله الجهاد على الرجال والغيرة على النساء . » ولكننا نستطيع أن نجزم أن مكانتهما من الدين والحسب ، ومنزلتهما فى قريش ، عصمتهما من لجاجة العلاّت وحماقتهن ، وسرفهن فى الكيد والخصومة .

على الجندى



شهيـــد الحرية !

للشاعر محمود حسن إسماعيل النخيلي

« القصيدة التي ألقيت فى حفل الذكرى الأولى لشهيد دار العلوم « على طه عفيفى » الذى أقيم بدار العلوم » .

يَا وَادِيَ الْمَوْتَى بِشَطِّكَ رَاقِدٌ	خَفَقَتْ لَهُ الأَرْوَاحُ بِالصَّلَوَاتِ

مَا ضَمَّهُ جَدَثٌ هُنَاكَ .. وَإِنَّمَا	حَضَنَتْهُ دُنْيَا النُّورِ فِي هَالَاتِ

سَهِرَتْ عَلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكٌ	تُضْفِي عَلَيْهِ سَوَابِغَ الرَّحَمَاتِ

أَلِقُ الضُّحَى فِي سَاحِهِ مُتَصَوِّفٌ	وَرِعٌ يَطُوفُ بِأَقْدَسِ الحُرُمَاتِ

وَعَوَابِرُ الْأَنْسَامِ تَخْطِرُ حَوْلَهُ	رَيَّا بِنَفْحِ عُطُورِهِ عَبِقَاتِ

تَنْسَابُ خَاشِعَةً ، وَتَسْرُبُ عَفَّةً	كَمُطَيَّبٍ يَمْشِي عَلَى عَرَفَاتِ !

وَالفَجْرُ قَبْلَ شُرُوقِهِ فَوْقَ الرُّبَى	يَخْتَارُ مِنْهُ وَشَائِعاً أَلِقَاتِ

أَفْوَافُ مِنْ لُمَعِ السَّنَا، وَمَطَارِفٌ	يُلْقِي غَلَائِلَهَا عَلَى الرَّبَوَاتِ

وَيَسُوفُ عِطْرَ الْخُلْدِ مِنْ جَنَبَاتِهِ	وَيُذِيعُهُ مِنْ أَكْؤُسِ الزَّهَرَاتِ

سَأَلَ الدُّجَى أَسْدَافَهُ لَمَّا بَدَتْ	فِي لَيْلِهِ الغَيْمَانِ مُلْتَمِعَاتِ :

مَا بَالُ مَا أَسْدَلْتِهِ فَوْقَ الْوَرَى	وَصَفَوْتِهِ مِنْ حَالِكِ الظُّلُمَاتِ

لَمَّا نَزَلْتِ بِهِ عَلَى هَذَا الْحِمَى	أَضْحَى مُتُوعَ الشَّمْسِ فَوْقَ رُبَاةِ ؟

فأجابت الأسداف : إن مضرجًا بدم الفداء أضاء لى قسماتى
لما لمحت رفاته خلت الضحى يزجى ركاب النور فوق سماتى
سموه فى الورق الشهيد. وما اسمه إلا الخلود بصفحة المهجات !

٭٭٭

ما زال سحر النيل طى حفيره يرتاع منه الذر فى الحصيات
وطلاسم الأهرام فوق جبينه قبس الخلود يشع للنظرات
وشعاعة الإيمان تشرق بينها كالنجم يسكب رائع اللمحات
وشواظ هيجته يكاد على الثرى يذكى اللظى بالأعظم النخرات
مل نحو مضجعه! وأصغ لجرحه واسمع نشيد الدم فى القطرات !
ما زال يترع ثورة من قلبه خرساء مفصحة بلا نبرات
وكأن آخر لفظة هتفت بها شفتاه ، مزمور من التوراة
وكأن أجراح الأسنة راية حمراء شهرها الدخيل العاتى
لمح الشهيد خيالها ، فنضا لها روحا يثور بأصلب العزمات
وأحالها مزقا صواغر أصبحت كفنا يذيق القيد مرتشبات
وارتد فى ريعانه مستشهدا يزهى بقدس الموت فى الحفرات
وكأنه لم يلق من كرب الردى إلا رسيس ضنى وظل صمات !

٭٭٭

أعواد زان كن فى كنف البلى صفرا ، نبذن بأبشع الكسرات

حُمِّلْنَهُ فَأَعَادَهُنَّ عَرَائِشًا تَخْضَلُّ فَوْقَ الْهَامِ مُؤْتَلِقَاتِ
وَكَأَنَّ بَيْنَ حَنُوطِهِ رَيْحَانَةً أَزَلِيَّةً هَرَبَتْ مِنَ الْجَنَّاتِ
نَسَمَتْ عَبِيرَ الْخُلْدِ طَيَّ سُتُورِهِ وَتَرَعْرَعَتْ فِي رَيِّقِ النَّفَحَاتِ
وَتَرَى الشُّمُوعَ الْمُوقَدَاتِ لِنَعْشِهِ شُعَلًا مِنَ الْفِرْدَوْسِ مُنْبَعِثَاتِ
تَهْتَزُّ وَالِهَةً ، وَتَغْضِي رَهْبَةً كَنَوَادِبٍ فِي الرَّكْبِ مُسْتَحِيَاتِ !
وَالسَّابِرِيُّ تَخَالُهُ مِنْ طِيبِهِ بُرْدَ النَّبِيِّ مُطَهَّرَ الصَّفَحَاتِ
لَفَّ الشَّهِيدَ مُطَهَّرًا فَحَسِبْتُهُ مَلَكًا تَهَيَّأَ مَهْدُهُ لِسُبَاتِ
حَارَتْ شِفَاهُ الْهَاتِفِينَ حِيَالَهُ مَاذَا تَنُصُّ لَهُ مِنَ الدَّعَوَاتِ !
وَاهْتَاجَتْ الْغِيدُ الْعَوَانِسُ حَيْرَةً مَاذَا يُفِضْنَ لَهُ مِنَ الشُّرُفَاتِ ؟
الزَّهْرَ ؟ مَا تَطْيَابُهُ ! وَالْعِطْرَ ؟ مَا تَسْكَابُهُ لِمُعَطِّرِ النَّسَمَاتِ !
وَالْحُسْنَ ؟ مَا تَلْمَاحُهُ ! وَاللَّحْنَ ؟ مَا تَصْدَاحُهُ لِمُفَجِّرِ النَّغَمَاتِ !
خُيِّبْنَ حِينَ رَجَوْنَ أَيَّةَ سَلْوَةٍ فَوَجَمْنَ مِنْ هَوْلِ الرَّدَى جَزِعَاتِ
يَتَّمْنَ أَدْمُعَهُنَّ مِنْ طُولِ الْبُكَا وَظَلِلْنَ فِي الْأَبْرَاجِ مُكْتَئِبَاتِ !
وَدَنَا الشَّهِيدُ مِنَ الْقُبُورِ فَأُرْعِشَتْ طَرَبًا بِمَقْدَمِ نَعْشِهِ فَرِحَاتِ
كَحَمَائِمٍ نَزَحَتْ فَضَلَّلَ سِرْبَهَا ظِلُّ الْمَسَاءِ بِوَحْشَةِ الْفَلَوَاتِ
جَثَمَتْ عَلَى الْكُثْبَانِ تَنْتَظِرُ السَّنَا وَأَتَى الصَّبَاحُ فَهِجْنَ مُنْتَعِشَاتِ
حَتَّى إِذَا وَافَى الْحَفِيرَ كَأَنَّهُ وَحْيُ السَّمَاءِ مُبَلِّجَ الْآيَاتِ
كَادَتْ عِظَامُ الْهَالِكِينَ تَخَشُّعًا لِجَلَالِهِ تَصْطَفُّ فِي الطُّرُقَاتِ

وتَعودُها الْأَرْوَاحُ من فرَحٍ بهِ ... وتظلُّ حتَّى البعْثِ مُبْتهِجاتِ
مَنْ مِثْلُ هذَا الْحَيِّ ؟ كُرِّمَ موْتُهُ ... مِنْ سائرِ الأَحْياءِ وَالْأَمْواتِ !

٭٭٭

وَهُناكَ تحتَ الْغَابِ يَعْزِفُ شاعِرٌ ... بقَصيدةٍ مَكْرُوبَةِ الْأَبْيَاتِ
أَشْجَى بها الشُّهداءَ بَيْنَ قُبورِهِمْ ... وَأَثارَ شَجْوَ اللَّيْلِ فِي الْغاباتِ
وَشَدا ، فكَادَ الغابُ يَسْجُدُ نَشْوةً ... وَيُرَتِّلُ الأَشْعارَ في السَّجَداتِ
أَلْحانُهُ خَفقتْ مجرَّحةَ الصَّدَى ... وَهفَتْ عَلَى الأَجْداثِ مُنْتَحِباتِ
لمَّا أَذَاعَ شُجونَها في ليْلةٍ ... سَوْداءَ كَالأَمْواجِ مُصْطَخِباتِ
وَثَبَتْ له رُوحٌ تفيضُ حَماسَةً ... وَمَضتْ تلُومُهُ بكلِّ ثَباتِ :
مَا بَالُ قلبك لَجَّ في نَغَمِ الْأَسَى ... وَفَوَاجِعِ الْأَحْلَامِ وَالصَّبواتِ ؟
حَطِّمْ (ربابَتكَ) الَّتِي تَشْدو بها ... وَادْفِنْ نَشِيدَ الهمِّ وَالحَسَراتِ
وَاصْدَحْ لَنا بِقَصِيدةٍ وَطَنيَّةٍ ... تَدَعُ الشَّهِيدَ مُسَعَّرَ النَّفثاتِ
أَسْمِعْهُ قِصَّتَهُ . . فَإِنَّ حَدِيثَهَا ... سَمَرُ الزَّمَانِ بهذه الْخَلَواتِ !
فانْسابَ وَحْيُ الشِّعرِ من أَوْتارِهِ ... كجداولٍ فِي الْحَقْلِ مُنْسَكِباتِ
وغَدا يغَنِّي في الحِمَى : يا جنَّةً ... فجَّرْتُ بيْنَ ظِلالها نغماتي !
النِّيلُ فيها قِصَّةٌ أَبدِيَّةٌ ... والطَّيْرُ قارئُها عَلَى العَذَباتِ
والنَّحْلُ فيها ذَا كِرٌ مُسْتَرْسِلٌ ... هَيْمانُ مَسْحُورٌ على الوَرَقاتِ
والنَّخْلُ فِي صَمْتِ الرِّياحِ كَأَنَّهُ ... نُسَّاكُ فَجْرٍ أَذَّنوا لِصَلاةِ

والشاعِرون كأنَّ مَسَّةَ جِنَّةٍ ... خبَلتهمُ من روعة الخطراتِ

تلقى أناملَهم إذا جاسوا بها ... مِن رَحمةِ الإلهام مُرتعشاتِ !

كُنَّا نسيرُ بها ، ولا حُسْنٌ ! ولا ... فِتَنٌ ! سوى الأغلال مُحتدِماتِ

نسقى بها البَلوى ، ويَشرَبُ غيرُنا ... من نيلِها بالأكؤس الشَّبِماتِ

والقيدُ يسبقنا إذا رُمْنا به ... فتكاً .. فيُرهِقُ عِزَّةَ الخُطواتِ

وإذا بأرواحِ الشَّبابِ تُطِلُّ من ... خَللِ الأسى والذُّلِّ مُنفطِراتِ

حتَّى أتى يومُ الفِداء فزُلزلتْ ... غضَباً وراحتْ فيه مُشتعِلاتِ

لبستْ دروعَ النارِ ثُمَّ تقدَّمتْ ... لِسَلاسِلِ الفولاذِ مُضطرِماتِ

نسفتْ صفائحها ، وأفنتْ ذرَّها ... وتهافتتْ في التُّربِ مُبتسِماتِ

رشفتْ رحيقَ الخُلدِ قبلَ مماتِها ... وتهيَّأتْ لِحِماهُ مُنتشياتِ

فوقفتُ أبعثُ ذكرَها بملاحِنى ... فشَدَتْ مُرفرفةً على أبياتى :

يا شاعِراً غنَّى فكادَ نشيدُهُ ... يهتزُّ في الأكفانِ منهُ رُفاتى

هذا خيالُ الخالدينَ فغنِّني ... وأعِدْ بشِعرِكَ للشَّبابِ حياتى !

محمود حسن اسماعيل النخيلي

الليالى الملاح

قل له لأنك عجوز

للأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار

حدث فى منتصف شهر شعبان سنة ١٣٠٠ هجرية، أن تفشى فى القطر المصرى وباء الكولرا أو الهواء الأصفر، تفشىَ الحريق المشتعل فى الهشيم اليابس، ولم تمض أيام قليلة على ابتداء ظهور هذا الوباء، حتى عم القطر كله. وكان المرحوم الخديو توفيق باشا شديد الاهتمام بأخبار الوفيات فى القاهرة وفى القطر المصرى كله. وحتم على مفتش صحة القاهرة أن يأتى إلى سراى عابدين ويخبر سموه بعدد الوفيات فى كل يوم

حدث فى أثناء هذا الوباء الجارف أن حمى التيفوس تخطت قوانين الأمراض الوبائية - لأن من عادتها الغالبة إذا اشتدت وطأة مرض وبائى فى بلد أن يكون السلطان له، وأن يمتنع وجود مرض وبائى آخر - وكان من نتيجة هذا التخطى أن أصيب المرحوم ذو الفقار باشا بحمى التيفوس، وكان المرحوم الخديو توفيق باشا حفياً به معنياً بصحته، فأرسل إليه الأطباء واتخذوا من طرق العلاج كل ما وصلوا إليه

وفى يوم من الأيام وصل إلى الخديو أن صحة (ذو الفقار باشا) فى تأخر ويخشى أن يكون قد وصل إلى دور الخطر. فأهمه ذلك - ولما جاء الدكتور صالح صبحى مفتش صحة مصر فى ذلك العهد إلى عابدين، أخبره الخديو بحال (ذو الفقار باشا) فقال الدكتور: «يا افندينا فيناروح وفيه روح، والله تعالى يحيي العظام وهى رميم» فقال له الخديوى: «وأنت تقول ذلك؟» فقال الدكتور: «ألست مسلماً يا افندينا؟» فقال له: «إذن فاذهب إليه وعالجه، وابذل كل عناية فى علاجه.» فصدع الدكتور بالأمر، وذهب إلى الباشا وغير طريقة العلاج - وبعد أيام أخذ ذو الفقار باشا فى النقاهة وتقدم إلى الشفاء بخطوات ثابتة إلى أن أبل وعادت إليه صحته

أما الوباء فلم يأت اليوم الأول من شهر شوال فى تلك السنة حتى انقطع من القطر المصرى كله انقطاعاً نهائياً ، وفرح الناس وسمو الخديو بذلك فرحاً عظيما

ولما أخبر الخديو بإبلال ذى الفقار باشا واستعادة صحته زاد سروره بذلك وأمر أن تعمل وليمة عظيمة بدار ذى الفقار باشا تكون نفقاتها من الجيب الخاص ، وأن يؤتى فيها بمن يطرب الحضور فرحاً بإبلال الباشا

نفذ ما أمر الخديو به، وأقيمت وليمة فخمة دعى إليها كبار الموظفين فى الحكومة المصرية والقناصل الجنرالية للدول الأوربية والأعيان والوجهاء ، وأتى بالمرحوم الشيخ يوسف المنيلاوى ليطرب الجمهور الحاضر فى الوليمة

كان من القناصل الجنرالية « المركيز دى رفرسو » قنصل فرنسا الجنرال ـ وكان المركيز أعزب ، ولكنه كان كما يقول الفرنسيون « ديك القرية » ـ وقد حضر الوليمة ومعه إحدى سيدات الطبقة الأرستوقراطية فى فرنسا وكانت بارعة الجمال

وبعد تناول ما لذ وطاب ـ جلس المدعوون لاستماع الألحان من الشيخ يوسف المنيلاوى . وجاس المركيز مع تلك الغادة الحسناء وقد أحاطت بها هالة من أحداق الجلوس

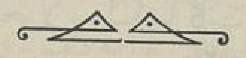
كان المرحوم على شريف باشا ممن أطالوا التحديق إلى تلك الفاتنة ، وقد لاحظت منه نظراً عارماً ، فأشارت على المركيز أن يتحول قليلا وتحولت معه محتجة بأنها فى مهب الريح ، فتحولا . ولكنها كانت تمر ببصرها الحين بعد الآخر لترى على شريف باشا ماذا يصنع ، فابصرته وقد أخرج من جيبه عشرة جنيهات لفها فى قرطاس . وأخرج ورقة أخرى وكتب فيها شيئا ، ثم أعطى ذلك أحد الفراشين ليعطيه الشيخ يوسف المنيلاوى وهو جالس على التخت ، وكان ما كتبه فى الورقة دورا غنائيا كان المطربون يغنون به فى الأفراح والليالى الملاح وهو :

حبيبى والنبى قولْ لِى دلالكْ دَا علَىَّ لِيه
وتاهْ فكرى معا عقلى وآنا عاشقْ وذنبى إيه

فلما شرع الشيخ يوسف فى الغناء تعالت أصوات الحضور بقولهم : آه، كمان ياشيخ يوسف . واستخف بعضهم الطرب فكان يرسل بطربوشه فى الهواء؛ فخافت الباريسية الحسناء أن يعتريها بعض الحضور بشىء يسوءها . فقالت للمركيز : هلم بنا فان القوم فى حال نشوة لا آمن معها أن ينالنا منهم مكروه. فقال لها المركيز : لا تخافى شيئا ، فإن هذه عادة المصريين إذا سروا من المطرب

فقالت : ماذا يقول هذا الرجل الذى يغنى حتى استهواهم بغنائه ؟ فلما ترجم لها وعرفت مغزاه رجعت بذا كرتها إلى أن على باشا شريف هو الذى أرسل بذلك الدور إلى المطرب ، فرمقته ثم توجهت إلى المركيز قائلة : Sil vous plait dit lui porce que vous étio vieu قل له : « من فضلك ، لأنك عجوز ! » قال الراوى : فكان طرب الحضور بهذه النكتة منها معادلا لطربهم بألحان الشيخ يوسف .

عبد الوهاب النجار



الغزل فى شعر البارودى

بقلم طلبة محمد عبده

غزل البارودى الذى سنتحدث عنه فى هذا المقال ، نظمه إلا أقله فى المرحلة الأولى من حياته ، وهى مرحلة القوة والفتوة ، مرحلة الشباب الجامح المفعم بالغرور حيناً وبالطيش أحياناً ؛ وهذه المرحلة تبدأ عند شاعرنا فى السادسة عشرة من عمره على أثر مغادرته مدرسة الحربية ، وتنتهى ببلوغه الثلاثين من عمره ، وتنتظم حياته فى ظل إسماعيل ، وهى إلا أقلها حياة عسكرية محضة ، بدأها ضابطاً ، وختمها وهو فى رتبة أمير اللواء ، واذا كنت على شىء من اليقين فى إقراركم بدء هذه المرحلة — فما إخالكم إلا مرتابين فى تحديد نهايتها بالثلاثين ، والشباب بعدها لا يزال ناضراً وثاباً إلى الكمال — والحق أنى كنت أشعر بافتيات على التاريخ لو لم أستند إلى دليل من شعره يقفنا على مدى فتوته ونشوته . ويفرق لنا بين صبوته وتوبته ، فإنه — غفر الله له — لم يشأ أن يتركنا فى ريب من أمره ، نضرب فى حدس ، ونقول فى وهم وظن ، بل حددها لنا فى قصيدة طويلة يعاتب فيها نفسه السادرة ، ويعنف فؤاده الغارق فى لذاته ويعظه بالماجنين حيناً وبنذر المشيب لامعة فى فوده أحياناً ، وإليكم بعض أبياتها التى يخاطب بها فؤاده :

متى أنت عن أحموقة الغى نازع ... وفى الشيب للنفس الأبية وازع
ألا إن فى تسع وعشرين حجة ... لكل أخى لهو عن اللهو رادع
فحتام تصبيك الغوانى بدلها ... وتهفو بلبيتك الحمام السواجع
أما لك فى الماضين قبلك زاجر ... يكفك عن هذا؟ بلى أنت طامع

ويرى أن الوقائع وقد شهدها ، والمعارك وقد اصطلى بنارها ، والحوادث وقد ارتطم بها - كفيلة بتهذيب النفوس فيقول :

وهل يستفيق المرء من سكرة الصبى ... إذا لم تهذب جانبيه الوقائع
يرى المرء عنوان المشيب برأسه ... ويذهب يلهى نفسه ويصانع

وسأريكم البارودى فى عنفوان شبابه وكهولة غيه ، واقفاً أمام المرآة يرى بياض المشيب لامعاً فى سواد شبابه، فتغرورق عيناه بالدموع ، ثم يجلس ويسند رأسه إلى يده ويعرض الحوادث ويجوب عروض الليالى وأطوالها فلا يلبث أن تسفر لعينيه الليالى ويتبين له الرشد من الغى ، فيدافع الصبوة بيديه ويحمل نفسه على الكتمان ويطويها على الأسى .

أجل سأريكموه كذلك من خلال قصيدته التى يقول فيها :

نزعت عن الصبي وعصيت نفسى ودافعت الغواية بالتأسى
وقلت لصبوتى والعين غرقى بأدمعها : رويدك لا تمسى
فقد ولى الصبا إلا قليلا أنازع سورة بفضول كأس
ومن يك جاوز العشرين تترى وأردفها بأربعة وخمس
فقد سفرت لعينيه الليالى وبان له الهدى من بعد لبس
نظرت إلى المِراة فكشفَّت لى قناعاً لاح فيه قتير رأسى
وكنت وكان فيناناً أبشاً أنازع شرتى وأذود بأسى
فعدت وقد ذوى من بعد لِين أدارى صبوتى وأسر يأسى

ولئن صدق البارودى فى شعره، وليس ثمة ما يدعوه إلى الكذب ، ولا ما يحملنا على تكذيبه ، لا سيما بعد أن صارحنا فى قصيدته السالفة بأنه لا يزال يفنى بقية صباه ببقية كأسه . ولئن كان شعره كذلك جزءاً من نفسه - لقد وجب أن نحمد له توبته ، وأن نعترف بأنه قد أقلع عن غيه وثاب إلى رشده فى سن لا يزال فيها لداته وأقرانه فى اللهو غارقين ، وأنه صحا حين ينتشى شباب اليوم ، وانتهى حيث يبتدئون . ولعل من حسن حظ البارودى أو من سعادته فى ذكراه ، أن الذين تصدوا لدراسته وهم قل ، قد أحسنوا به الظن وأغفلوا شأن التاريخ وأغضوا الحقائق فى مرضاته ؛ ولعلهم لم يقرءوا له إلا مثل قوله :

وباكية شجت قلبى بلحن تهيج له المسامع والقلوب
سألت فقيل قد فقدت حبيباً وهل يبقى على الدنيا حبيب
بكيت لها ولم أفهم صداها وقد يبكى من الطرب الغريب

أو قوله وهو فى سرنديب يذكر أيامه وأحبابه فى حلوان :

جلون بحلوان الوجوه كواكباً فيامن رأى فى الأرض سير الكواكب
فكم من صريع فى حبائل مقلة وكم من أسير فى قيود ذوائب
وما كنت لولاهن أستقبل الصبى وأسأل عن أهل الحمى كل راكب

إلى غير ذلك من شعره فى منفاه ، وفاتهم أن تلك المرحلة المظلمة من عمره لا تسمح بغزل ولا نسيب إلا بمقدار ما يتسلى به ويسرى عن نفسه . والبائس إذا عدم السعادة تلمسها فى ذكراها .

يقول أحد شعراء الانجليز : يُتمتع بالشيء فى ثلاث مراحل : فى ترقبه ، وتحققه ، وتذكره . ومن قرأ قوله فى سرنديب :

زمان تولى غير إعقاب ذكرة إذا خطرت كادت له النفس تنزع

لم يدع فى نفسه للشك مكاناً

أو لعلهم وذلك ما لا أكاد أعتقد سواه ، قد قرءوا وفهموا ، ولكنهم رأوا أن الغزل والنسيب كلاهما عيب فنزهوه عنهما ، وتحرجوا وتورعوا أن ينسبوا إليه كل ما قرءوه ، ونظروا إليه وإلى شعره بعين الرضى ؛ وعين الرضى عن كل عيب كليلة .

وقد يكون لهم بعض العذر فيما اعتقدوا ، فاننى لم أكد أتصدى لدراسة هذا الغرض من شعره حتى رأيتنى أمام شخصية غامضة وعقلية غريبة ونفس حركة لا تستقر على حال ، يتنازعها الجد واللهو ، وتشتجر بين جوانبها ثورة الشباب وجلال المشيب ؛ تبدو من خلال شعره كالبرق : تسفر فى أبيات وفى غيرها تنتقب ؛ آناً تجرفها فورة الشباب فتغرق ، وأحياناً يسعفها العقل فتطفو ويعجلها الرشد فتثوب وتنتحل الأعذار لما اقترفت ؛ فهو يحب كما يحب غيره ، ولكنه لا يود أن يفهمك أنه قد نظر فأغرم كما يغرم الناس وكما يحبون ؛ وإنما يعزو سبب حبه إلى أنه رأى فى الحب وسيلة لتقويم الأخلاق فأحب ، وفى التعليل لحبه يقول :

يقوى به قلب الجبان ، ويرعوى طمع الحريص ، ويخضع المتكبر

ولعل أحسن ما فى هذا البيت أنه يعيد إلى ذوا كركم ذلك الحوار الأدبى

الجميل الذى دار بين مولر وابنته ماجدولين خاصاً بحبيبها استيفن حينما يقول لها: إن فى أخلاقه من الكبرياء والترفع ما يحول بينه وبين النجاح فى الحياة. فتقول له: يا أبت إن الحب يقوم ما اعوج من الأخلاق ويحيي فى نفس المحب ميت الأمل.

وهو يحتسى الخمر حتى تدور به الأرض، وحتى يرى الأفق يناى ويقرب، ثم يزعم أنه ليس ممن تأسر الخمر لبه، كل ذلك فى قصيدة واحدة يقول فى أولها:

وما أنا ممن تأسر الخمر لبه ويملك سمعيه اليراع المثقب

ويقول فى آخرها:

وقلنا لساقيها أدرها فإنما قصارى بنى الأيام أن يتشعبوا
فلم نال أن دارت بنا الأرض دورة وحتى رأينا الأفق ينأى ويقرب

وهو لا يرى مانعاً من أن يحشد لقارئه هذا التناقض الغريب الذى لامبرر له إلا تباين العهد فى صفحتين متقابلتين، يقوم فى الأولى واعظاً مرشداً إلى مضار الخمر وسيء آثارها فى العقل والقلب فيقول:

دع الحميا فلابن حانتها من صدمة الكأس لهذم ذرب
تراه نصب العيون متكئاً وعقله فى الضلال مقترب
إذا تفشت بمهجة قتلت كما تفشى فى المبرك الجرب

ويتراءى فى صدر الثانية سكيراً مدمنا يعشق الخمر ويدعو إلى اصطباحها ويعدد فضائلها فيقول:

أدر الكأس يا نديم وهات واسقنيها على جبين الغداة
أى شيء أشهى إلى النفس من كا س مدار على بساط نبات
فامتثل دعوة الصبوح وبادر فرصة الدهر قبل وشك الفوات

وأعجب من ذلك ن يذكر لك البيت الواحد يدعو فى صدره إلى الصلاة وفى عجزه إلى المجون واللهو مابين الجزيرة والنهر فيقول:

فبادر لميقات الصلاة ومل بنا إلى القصف مابين الجزيرة والنهر
إذا ما قضينا واجب الدين حقه فليس علينا فى الخلاعة من وزر

وهو يقضى مع حبيبه الليل كله لا يفيق حتى يشرئب عقاب الفجر ، يشرب ويطرب ، ويتمتع بها ما شاءت له الفرصة المتاحة و الرقيب الغافل ، و يصارحك بانه ما كان ليقنع منها بالنظر قرته و بسطته فيقول :

لا تقنع العين منها كلما نظرت ... وكيف يقتنع المشتاق بالنظر
وبت من وصلها فى جنة ينعت ... أفنانها بثمار الأنس والحبر
حتى اشرأبت عقاب الفجر فانطلقت ... حمائم الشهب من أحبولة السحر

ثم يدعى بعد ذلك فى آخر القصيدة نفسها أنه كان أعف الناس عما تحت الإزار فيقول :

أبحت للعين منها ما تقرّ به ... وذدت كف الصبى عن معقد الأزر

ولكن ثوب الرياء الذى يحاول أن يستر به حقيقة أمره لا يلبث أن يشف عما تحته فيتراءى لك البارودى من كلامه مسرفاً فى غرامه ، خليعاً متلفا فى خلاعته ، تسعده الفرصة فيهتبلها ، وتوانيه اللذة فينخلع لها من وقاره و يبرأ لأجلها من عقله ويقول لأصحابه :

دعونى من ذكر الوقار فإننى ... على سرف من بغضة الحكماء

وإذا أحب أغضب فى سبيل حبه الأهل وعصى الأخلاء والأقرباء ، وأخذ عليه الحب سبيل العقل والرشاد ، وفى ذلك يقول :

إن الفتاة التى هام الفؤاد بها ... أخفت علىّ سبيل العقل والسّدد
أغضبت فى حبها أهلى فما برحوا ... إلبا على وكانوا لى من العدد

وأصم أذنيه عن كل نصح ، وعد الرشاد غيا ، واللوم شيئا فريا ، وأقبل على حبيبته يقول لها :

زمزمى الكأس وهاتى ... واسقنيها يا مهاتى
وامزجيها برضاب ... منك معسول اللهاة
طالما عاصيت فيها ... أهل ودى ونهاتى
لا أبالى فى هواها ... بسماع الترّهات

وهكذا يستفتح أكثر قصائده بمثل قوله :

املأ القــدح واعص من نصح
وارو غلــتى بابنــة الفرح
فالفــتى متى ذاقهــا انشرح
وهى إن سرت فى العليــل صح

وهو كشوقى يرى أن الحياة الحب والحب الحياة ، فإذا خلت منه فهى صفحة سوداء لا يتألق فيها نجم ، ولا يلتمع فيها بريق ، وإذا عرفت أن وليم جمس يقول : إنك لا تكون شاباً إلا مرة واحدة فكنها ؛ وقرأت إلى شاعرنا قوله :

وأى لوم على امرىء طلب اللــهو وأثواب عمره جدد
لكل عصر من كبرة وصبى شوط له بعد مهلة أمد

عرفت إلى أى حد كان شاعرنا حريصاً على الاستمتاع بشبابه حرص من يعلم أن الفتوة فرصة والقوة سيف إن لم تقطعه قطعك ولذلك يقول لنديمه :

فقم نغتنم صفو أيامنا وندفع بالراح عنا الأذى
فما بعد عصر الصبى لذة ولا مثل صفو الحيا غذا

وإذا كان شوقى يرى أن الحب حق من حقوق الحياة على الشباب فى نضارته ، ودين من ديونها على القلب فى فتوته فيقول فى إحدى رواياته :

بُنَىَّ ليس بالفتى إذا أحب من عجب
من لم يحب لم يؤدِّ للشباب ما وجب

فإن شاعرنا يزيد عليه فيرى أن الشباب مراد الخلاعة والمجون وينعى على من يضيع فرصة اليوم أملا فى إدراكها غداً فيقول :

فقم بنا نلهو بلذاتنا فإنما العيش له آخر
ولا تقل ننظر ما فى غد رب غد آمله خاسر
وإنما العيش ولذاته فى ساعة أنت بها سادر
لا يغنم اللذة غير امرىء ليس له من دهره زاجر

وماذا كنت تنتظر ن رجل اجتمع له الشباب والجدة وهى كما علمت مفسدة

للمرء أى مفسدة، لا سيما لشاعر رخى العنان سمى المكان يترنم دائما بقوله:

لعمرك ما فى الدهر أطيب لذة من اللهو فى ظل الشبيبة واليسر

لعلك بعد ذلك قد أصبحت على يقين من أن البارودى كان مغرماً وكان مسرفاً فى غرامه، وكان ماجناً مفتناً فى مجونه، لا يكاد يغادر الميدان ويغمد سيفه فى قرابه إثر موقعة أو غب انتصار حتى ينحدر إلى الحانة، ويودع أدبه وعقله ومجده. والبيتان الآتيان يصفان لك تلك الحانة وروادها وصفاً مستوعباً شاملا:

فرحنا نجر الذيل تيهاً لمنزل به لأخى اللذات واللهو ملعب

مصارع سكير، ومربض فاتك، ومخدع أكواب به الخمر تسكب

ثم يخرج من تلك الحانة والليل لا يزال باسطاً على الكون جناحيه، فيرى الناس يتحاشونه ويتمانعون عنه ويتناهون عن لقائه، وإذا واجههم مكرهين تملقوه وخادعوه شأنهم الذى كان ولا يزال مع كل سكير خلف بين الدنان عقله، وهو يعجب من خوفهم وتملقهم وفرارهم من وجهه ويحدثنا عن كل ذلك فى قوله:

وقالوا فتى مالت به نشوة الصبا وليس على الفتيان فى اللهو من حجر

يخافون منى أن تثور حميتى فيبغون عطفى بالخديعة والمكر

وإذا شئت أن تعلم عن مجونه وخلاعته أكثر من ذلك، فاعلم أنه كان عاشقاً فى صورة مشعثة، شهويا لا يقف فى شهوته عند غاية، وله فى الاستمتاع بالحبيب أفانين المحب المدرب وأساليب العاشق المجرب؛ فهو يعاتب حبيبه ليخجله فيتمتع بحمرة خديه، وينشده شعره ليبتسم فيتمتع بالابتسامة تمر على شفتيه، ويذكره ليبكيه فيتمتع بالدموع تنحدر على وجنتيه؛ وفى مرآة شعره تتجلى هذه الصور وأشباهها، ثم هو لا يرى عيبا أن يبكى بين يدى حبيبته، ويتوجع إذا ما رأى فى بكائه وتوجعه سبيلا إلى قبلة يظفر بها كما تحدثنا الأبيات الآتية:

فلما رأى أدمعى توالت وقلبى وجف

تبسم لى ضاحكا ومانع ثم انعطف

فأغرمته قبلة «عفا الله عما سلف»

وإليكم ليلتين من لياليه العامرة بالمجانة واللهو، قضى إحداهما بين جدران منزل بحلوان وفى وصفها يقول:

وليلة كضياء الكأس لامعة أدركت باللهو فيها كل مقترح
أحييتها بعد ما نام الخلى بها بغادة لو رأتها الشمس لم تلح

وقضى الثانية تحت أغصان بستان بروضة المقياس وفى وصفها يقول:

ويارب ليل لفنّا بردائه كما لف الصبا البان والرّندا
ولثم توالى إثر لثم بثغرها كما شافه البازى على ظمأ وردا

ومن عجب أن يسقط البارودى فى حبه كل هذه السقطات، ثم يدعى أنه لم يأت فيه بما يحط من قدره فى المحافل أو يزرى به فى المجالس فيقول:

على أننى لم آت فى الحب زلة تغطى بذكرى فى المحافل أو تزرى

ولشاعرنا فى الحب آراء عجيبة ونظرات جامحة:

ا — فهو يرى أن لكل شىء زكاة، وزكاة الجمال قبلات فى الخال، ويقول لحبيبته:

ليس لى غير خالك الحجر الأسو د فى كعبة المحاسن قِبلة
فأثيبى على الجمال زكاة وزكاة الجمال فى الخد قُبلة

ب — ويعتقد أن الحب بغير وصال عمل بلا أجر فيطلبه إلى حبيبته ويلح فى طلبه جهاراً فى عرض الطريق ويعترف بذلك فى شعره فيقول:

سرت علىّ تهادى مثل المهاة بشَبْرَة
فقلت هل من وصال يكون للحب أجرة؟
فاستضحكت ثم قالت على الخديعة: بُكرة

وهذا النوع من الحب وإن لم يكن خارجا عن قواعده المألوفة فهو من أحط درجاته وأوضعها، لا سيما فى عصر كعصرنا الذى نحن فيه.

ذلكم هو البارودى من غير مبالغة ولا إطراء؛ وهذا غزله الذى يجيش به ديوانه وتزدحم به قصائده تحت مصباح الأدب العف، وإذا كان لك أن تعرف رأينا فيه فاعلم: أنه غزل صناعى محض، قوامه الترسم والمحاكاة، وليس لصاحبه فيه من الفضل أكثر مما لآلة التصوير فى إخراج الصور متقنة كأصولها:

استمد مبانيه من المعاجم ، كما استمد معانيه من مقروئه من القدماء ومحفوظه من نظم ونثر .

فهو يبدأ قصائده كلها لا سيما قصائد المدح بالغزل وذكر الخمر كما كانوا يبدءون : مدح عبد الله باشا فكرى وشكيب أرسلان بقصيدتين تربى كل منهما على السبعين بيتاً ليس فى الأولى خالصاً لمدح عبد الله سوى أربعة عشر بيتاً . ولا ينيف ما فى الأخرى من المديح على العشرين . يقول فى مطلع الأولى :

أديرا كئوس الراح قد لمع الفجر وصاحت بنا الأطيار أن وجب الشكر

ويقول فى مطلع الثانية :

رُدّى التحية يامهاة الأجرع وصلى بحبلك حبل من لم يقطع

وإذا كان كرم الأخلاق وتهذيب النفوس من أبعد الأشياء عن الغزل والنسيب ، فإنه يأبى إلا أن يجعلهما مقدمة وتمهيداً لقصيدة جعل عنوانها « الحث على مكارم الأخلاق » وتقرأ القصيدة فلا ترى صلة بين الغرض الذى تحث عليه وبين مطلعها الذى يقول فيه :

بناظرك الفتان آمنت بالسحر وهل بعد إيمان الصبابة من كفر

فلا تعتمد بالهجر قتل متيم فإن المنايا لا تزيد عن الهجر

وهو ينسج فى أوصافه وتشبيهاته على المنوال الذى كان ينسج عليه شعراء البادية من أربعة عشر قرنا ؛ فيشبه وجه حبيبته بالقمر ، وخدها بالورد ، وقامتها بالغصن ، ومقلتها بعين الغزال ؛ وقد يحشد كل هذه الصور فى بيت واحد ، كما تسلك منتثر الحب على غير نظام فى خيط واحد ، أو تركمه فى علباء مقفلة حرصاً عليه من الضياع ، فيقول :

تحكى الغزالة ألحاظاً إذا نظرت والورد خداً وغصن البان أعطافا

ويقول فى موضع آخر :

كالورد خداً والبنفسج طرة والغصن قداً والغزالة ملفتا

ويعجب باجتماع هذه التشبيهات فيعشقها حتى تصير له لازمة فيكررها فى موضع ثالث يقول فيه :

كالبدر إن سفرت ، والظبي إن نظرت ، والغصن إن خطرت ، والزهر إن نفحت

ولقد ينسى أنه فى القاهرة بلد السيارة والقاطرة والجماز والطائرة ؛ فيجلل ديوانه بوصف الخيل والنوق والظباء ومساقط الغيث . وتقرأ له ذلك كله فما تشك فى أنك أمام شاعر بدوى لم يهبط الحواضر ولم يغش المدن

مظاهر الترسم والمحاكاة فى شعره :

كان لإسراف البارودى فى ائتثار القدماء ومحاكاتهم آثار بينة حسن بعضها وبعضها مبتذل ذميم ؛ فمن هذه الآثار :

١ — ولوعه على طريقة الأقدمين ببكاء الدمن والوقوف بالأطلال ، فيستفتح إحدى قصائده بقوله :

ألا حىّ من أسماء رسم المنازل وإن هى لم ترجع بيانا لسائل

فلأياً عرفت الدار بعد ترسم أرانى بها ما كان بالأمس شاغلى

٢ — تغلغل الطبيعة البدوية ، حيوانها وجمادها فى شعره ، وإغارتها على الطبيعة المصرية على مافيها من جمال وجلال . فهو يصف ويتغزل فيما قرأ لافيما رأى وسمع ؛ ولعلك ترى ذلك واضحاً حين تسمعه يقول فى وصف الناقة وإسرائها به إلى البادية ليلا ، والله يعلم أنه لم يركبها ليلا ولا نهارا :

وروعاء المسامع ما تمطت بحمل بين سائحة مخاض

خرجت بها إلى البيداء ليلا خروج الليث من سرف الغياض

و يتغزل فى نجد والعقيق ، ولعله لم يرهما إلا بين الطور ، فيقول :

يا سعد قل لى فأنت أدرى : متى رعان العقيق تبدو ؟

أشتاق نجدا وساكنيه فأين منى الغداة نجد

ويبدأ قصيدة ثالثة بذكر الغضا ، وما رآه ولا كان من ساكنيه فيقول :

* أين ليالينا بوادى الغضا *

ويستفتح رابعة بقوله :

هل من فتى ينشد قلبى معى بين خدور العين بالأجرع

والعين من حيوان البادية ، والأجارع صنوف من أديمها

وأحسب أنه لا يقصد نجدا ولا العقيق ، ولا يريد الأجارع وعينها ولا الغضا وساكنيه ، ولكن له غرضاً آخر لا يخفى على الأريب

٣ – مجىء غزله إلا أقله سطحياً خالياً من التعمق والاستقصاء لا يعلق إلا بالظواهر ولا يعنى بغير القشور ؛ فإذا تغزل فى المرأة مثل الطبيعة الأعلى للجمال لم يعدُ أديمها فى متنوع صوره ومختلف أثوابه ولم يتناول من مفاتنها سوى الأعضاء التى تناولها الأقدمون فى حركاتها وسكناتها ، ومن الأمثلة لذلك قوله :

حواجبها القسى ولحظتاها بها سهمان والأهداب ريش

وقوله من قصيدة ثانية :

يلومونى على كلفى بليلى وليلى فى سماء الحسن بدر
لها خد به للحسن ورد ولحظ فيه للملكين سحر
وتبسم عن جمان فى عقيق يقال له بحكم الذوق : ثغر

ومع مافى السطر الأخير من ركاكة وهبوط إلى لغة لاتليق بالغزل فإن هذه الأبيات تحد لك مثله الأعلى للجمال ومقاييسه وهى سطحية كما ترى لا تعدو القمر والحجر

٤ – كثرة استعارته معانى المتقدمين أو إغارته عليها وإدخالها فى شعره متعمداً وغير متعمد ولست فى ذلك ممن يلقون القول على عواهنه أو يدعون الشىء من غير بينة واستمع إليه حين يقول :

أغضبت فى حلمها أهلى فما برحوا إلبا على وكانوا لى من العدد

ثم ارجع بذاكرتك إلى قول عمر بن أبى ربيعة لحبيبته :

وعصيت فيك أقاربى وتقطعت بينى وبينهمو عرى الأسباب

وتجده منقاداً منه أو منقولا عنه .

ومن قرأ قوله فى وصف صواحبه :

غوافل لا يعرفن بؤس معيشة ولاهن بالخطب الملم شواعر

وقرأ للمرقش الأكبر في نفس المعنى قوله :

نواعم لا تعالج بؤس عيش   وانس لا تروح ولا ترود

أيقن أن شاعرنا مدين له بهذا المعنى الجميل

وحسبك أن تعلم أن أروع أبياته فى الغزل وأكثر قصائده موسيقية قوله يعني طائراً أيقظه بنواحه من نومه :

ألا يا حمام الأيك إلفك حاضر   وغصنك مياد ففيم تنوح

غدوت سليما فى نعيم وغبطة   ولكن قلبى بالغرام جريح

وقوله من قصيدة أخرى فى نفس المعنى :

ما باله وهو فى خضراء ناعمة   لا يبعث الطرف إلا خائفاً خدراً

إذا علا بات فى خضراء ناعمة   وإن هوى ورد الغدران أو نقرا

قد تأثر فيهما إلى حد بعيد بالشريف الرضى حيث يقول مخاطباً طائره :

وأنت فى ظل أفنان مهدلة   تحنو عليك بقنوان العناقيد

ملأت عشك طعماً غير مختلس   بلا رقيب وورد غير تصريد

وما أعتقد أننا سنختلف فى قوله :

أترى الحمام ينوح من طرب معى   وندى الغمامة يستهل لمدمعى

وقوله فى نفس القصيدة :

فالغيث يهمى رقة لصبابتى   والطير تبكى رحمة لتوجعى

منقولان عن أحد شعراء الأندلس وإخاله ابن عباد حين يقول :

علىّ ، وإلا ما بكاء الغمائم   وفىّ ، وإلا ما نواح الحمائم

ولو أمرت كل معنى من معانى قصيدته التى يقول فى مطلعها :

ألا حى من أسماء رسم المنازل   وإن هى لم ترجع بيانا لسائل

خلاء تعفتها الروامس والتقت   عليها أهاضيب الغيوم الحوافل

غدت وهى مرعى للظباء وطالما   غنت وهى مأوى للحسان العقائل

ويرجع عندى أن مثل هذه الأبيات قد قصدها البارودى متعمداً ، ولا يغفرها له دعوى توافق الخواطر او اشتراك المعانى ـ لو أمرت كل معنى فيها أن يعود

لصاحبه لما بقى لشاعرنا منها غير ألفاظه التى جمعها من المعاجم ، وصوره التى انتزعها من صميم البادية وكان من نتائج إسرافه وغرقه فى هذه الناحية ناحية الإغارة على أفكار غيره وخواطره أن وقعت فى غزله سقطات ليس لنا أن نغفرها لشاعر مثله ولا سيما فى الغزل الذى هو أرق أغراض الشعر .

سمع أبا العميثل يقول :

فاصدُق وعف وجد وانصف واحمل واصفح ودار وكاف واحلم واشجع

فسمعناه يقول :

فانهض وسر وانظر ومل وابتهج وامرح وطب واشرب لترتوى الصدى

ويعجب بهذا النسج المتكاف فيكره فى موضع ثان على الصورة الآتية :

فانعم وطب واله واطرب واعل وسد واشرب وغن وته والعب وهم وطر

ونسى أن بيتى صاحبيه كانا ولا يزالان من الأبيات المعيبة التى أفسدها التكرير وطغت عليها الصناعة اللفظية — فعافها الذوق واستثقلها اللسان ومجتها الآذان وأن بيتيه يجمعان إلى العيوب اللفظية السالفة عيبا آخر له خطره هو المجانة الطليقة و الخلاعة السافرة .

وسمع ابن رغبان المعروف بديك الجن يقول :

أحل وامرُرْ وضر وانفع ولن واخشن ورس وانتدب للمعالى

وسمع شاعراً قديما يستقصى أسباب الحب ويرتب درجات الغرام فيقول فى هذا النسج البديع :

رأى فحب فسام الوصل فامتنعت فرام صبراً فاعيا نيله فقضى

ونزع إلى محاكاته فرأيناه يقول :

حنت رثت عطفت مالت حبت عزمت همت سرت وصلت عادت دنت منحت

وهو بيّن العيب ظاهر الفساد .

٤ — إكثاره من التحدث عن حبائل الهوى وسحر العيون واستعدائه على الحب المهاجم ، والغرام الهازم بحمية الأهل والجيران ، وشجاعة النازلين والقطان ، وإكثاره من ذكر العذول والشكوى إلى ملك الغرام ، إلى غير ذلك من

التعبيرات والتراكيب التى كانت شائعة فى الشعر حين تكلفه غير أهله ، والتى كانت الطابع الغالب على أساتذته وجل معاصريه .

وبعد فما دمنا قد نصبنا أنفسنا لنقده فمن الواجب علينا ألا نترك هذا الموضع من بحث الليلة حتى نعتذر عنه بعذر واحد ما نظن أن له فى ميزاننا سواه ذلك بأنه وإن كان معدوداً فى رأى جمهرة الأدباء فى العصر الحاضر أول أو أقدم أساتذة المدرسة الحديثة فمن الحق ألا ينسوا أنه آخر تلاميذ المدرسة القديمة وأنه تثقف على الدرويش والخشاب والعطار والشاب الظريف وأمثالهم . على أن البارودى بلل الله ثراه كفانا مئونة التعليل والتدليل ، فصارحنا برأيه وطالعنا باعترافه فى مقدمة ديوانه التى سطرها بقلمه ، فإذا تصريحه واعترافه حجة بالغة ودليل قاطع على ما ذهبنا إليه من ولع بالقديم وشغف بالمحاكاة ورغبة فى ألا يترك للقوم تراثاً ينقصه هذا الغرض الذى يترنم به الخلى فى أنسه ويتسلى به الشجى فى بؤسه ، واستمع اليه حين يقول فى نهايتها .

تكلمت كالماضين قبلى بما جرت ... به عادة الإنسان أن يتكلما
فلا يعتمدنى بالإساءة عاقل ... فلا بد لابن الأيك ن يترنما

وما دمت أنظر فى غزله بعين النقد التى تميز ولا تتحيز ، فمن الإنصاف أن أعترف له بالإجادة والإحسان فى مواطن كثيرة ، منها :

١ — أنه عارض كثيراً من فحول الشعراء أمثال الشريف الرضى والنابغة وأبى نواس والمتنبى فنجح حتى رجح ، وسابقهم فى ميدانهم فسبقهم . وإذا كان النابغة يقول فى وصف المتجردة :

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه ... فتناولته واتقتنا باليد
لو أنها عرضت لأشمط راهب ... عبد الإله ضرورة متعبد
لرنا لرؤيتها وحسن حديثها ... ولخاله رشداً وإن لم يرشد

فما قصر شاعرنا حين قال فى وصف حبيبته من نفس البحر والقافية :

وإذا رأين أخا المشيب قلينه ... وسترن ضاحية المحاسن باليد
روعاء تنفر من عصافير الضحى ... سرفا وتجزع من صياح الهدهد

هيفاء إن خطرت سبت وإذا دنت — سلبت فؤاد العابد المتشدد

٢ — أبدع فى وصف الخمر حتى أتى فى رأينا بما لم يأت أبو نواس بأكثر منه ، وما ذا عسى أن يقول أبو نواس فيها بعد ما قال البارودى فى وصفها :

إذا ألجمتها بالماء قرت — ودار بجيدها لبب الحباب

موردة إذا اتقدت بكف — جلتها للأشعة فى خضاب

وهل نالت الخمر من إبداع التصوير وسمو الخيال فى شعر أبى نواس على شهرته بها وبعد صيته ما نالته من خيال شاعرنا ودقة تصويرة حين يقول :

سليلة كرم شاب فى المهد رأسها — ودب لها نسل وما مسها بعل

إذا ولجت بيت الضمير رأيتها — وراء بنات الصدر تسفل أو تعلو

كأن لها ضغنا على العقل كامناً — فإن هى حلت منزلا رحل العقل

ولهذا لم يكن فى رأينا مبالغاً ولا مخدوعا فى شاعريته حين قال

ولو كنت فى عهد النواسى لم يقل : — «أجارة بيتينا أبوك غيور»

٣ — إنه مخلص فى حبه متفان فى غرامه باق على عهده ولو سهد الحبيب جفنه وعذبه بالصد والهجران ، يبكى فى حضرته ويستحلفه أن يرعى فيه جلال المكانة وحرمة المجد فيقول :

لأنت وأى الناس أنت ؟ حبيبة — إلى ولو عذبت قلبى بالصد

إليك سلبت العين طيب منامها — وفيك رعيت النجم فى أفقه وحدى

فحتام تجزينى بودى جفوة — أما ترهبين الله فى حرمة المجد

ب — رقيق فى غزله خفيف فى دعابته . يستعطف حبيبه بالشعر يلقيه فى آذانه بيتاً إثر بيت حتى يرق ويبتسم وفى ذلك يقول :

وأنشـــدته قطعة — وشعرى إحدى الطرف

فاصغى لها باسما — وبان عليه الأسف

ونمت به خجلة — تنم على ما اقترف

ويعاتبه ليحمر خداه ويعترف فى شعره بذلك حين يقول :

عاتبته لا لشىء فيه معتبة — عليه ، لكن لأرعى وردة الخجل

وهو يكتفى من حبيبته إذا اعتدل فى حبه بالوعد ولو كان كاذبا فيقول :

جودى على ولو بوعد كاذب فالوعد فيه تعلة ورجاء

ويقنع منه كما يقنع جميل من بثينة بالنظرة العجلى فيقول :

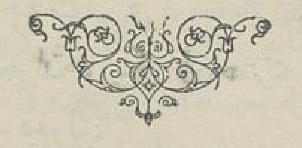
إنى لأقنع من هواك بنظرة وأعدها صلة إذا لم تمنعى

فإن أعوزته فى يقظته قنع بخيالها فى سنته وقال

فهل إلى سنة إن أعوزت صلة عود تنال بها من طيفها الوطرا

تلك ناحية من شعر البارودى أكرم الله مثواه ، وأحسن جزاءه فى أخراه .

طلبة محمد عبده



صورة صادقة

هول الوداع !

للشاعر فايد العمروسى

يالهول الوداع حين التقينا لحظة فى الطريق ثم انتهينا
وسهام الأنظار ترنو الينا ورقيقُ القلوب يحنو علينا
انتهينا على الأسى وافترقنا وكلانا يسير سير الهوينا
عزّ كلٌ على أخيه فألقى لفتةً منه جمّعت ناظرينا
لفتةٌ قيّدت فتورَ خطانا فى ذهول ، واوقفتْ قدمينا
ثم عدنا إلى اللقاء عتاباً فى هوانا ، وليتنا ما التقينا

***

لحظةٌ كاللهيب أضرمَ ناراً تتلظّى ، فأحرقت مهجتينا
ودموع الوداع حرّى حيارى فى حنانٍ تفيضُ من عينينا
كلما همّت المشاعرُ توحى بحديث ، يموتُ فى شفتينا
ماعسانا نقول - يالهف نفسى - روعةُ الهول أذهلت خاطرينا
لم نُطقْ حين آذنت بوداع ساعة البَيْن - أنْ نمد يدينا
فافترقنا كما التقينا عزاءً فى هوانا ، وليتنا ما التقينا

طرائف اللغة

للأستاذ مهدى أحمد خليل

(٤)

الإنكار وحروفه الثلاثة : الألف والواو والياء

إذا قال لك رجل : زارك عُمَرُ . وأردتَ أن تنكرَ عليه أنّ عُمَرَ زارك فقل له : أعُمَرُوه . وإذا قلتَ : جاءنى محمد . وأراد المخاطب أن يكذبك وينكرَ عليك أن محمدا جاءك ، فإنه يقول لك : أمُحَمَّدُنيه . ومعنى هذا أنه لايعتقد أن محمدا جاءك ، أو يقول ذلك من لا يَشُكُّ أن محمدا جاءك وينكر ألاّ يجيئك ، فكأنه يقول : من يَشُكُّ فى هذا ، وكيف لا يجيئك ؟ قال سيبويه : سمعنا رجلا من أهل البادية قيل له : أتخرج إن أخصبت البادية ؟ فقال : أأنا إنيهْ ؟ والواو فى أعُمَرُوه تسمى حرف الإنكار أو الاستنكار ، ومثلها الياء فى أمُحَمَّدُنيه وأأنا إنيهْ ، والهمزة التى قبل تلك الكلمات هى همزة الاستفهام ، والهاء التى فى أواخرها هى هاء السكت أتِى بها للوقف ، وما بَين همزة الاستفهام وحرف الإنكار يسمى منكورا

طريقتا الإنكار :

للإنكار طريقتان : الأولى :

إذاكان آخر المنكور متحركا بحركة إعرابية أو بنائية ، وأريد الانكار يُؤتى بهمزة الاستفهام قبل المنكور ، ثم يؤتى بحرف الإنكار (الألف والواو والياء) بعد المنكور مجانسا لحركة الحرف الذى فى آخر المنكور ، فإن كان متحركا بالضم يؤتى بالواو ، وإن كان متحركا بالفتح يؤتى بالألف ، وإن كان متحركا بالكسر يؤتى بالياء . ثم يؤتى بهاء السكت بعد حرف الإنكار للوقف

فتقول فى الإنكار لمن قال : أقبل عثمانُ : أعثمانوهْ ، بزيادة همزة الاستفهام قبل عثمان ، وزيادة الواو بعده لمجانسة الضمة ، وزيادة هاء السكت للوقف .

وفى الإنكار لمن قال إنى ذهبتُ : أذَهَبْتُوهْ ، وتقول فيه لمن قال غلبنى الضعيف : آلضَّعِيفُوهْ ، كأنك تهزأ به وتنكر تعجبه من أن يغلبه الضعيف (وقد قلبت همزة الوصل مدة بعد همزة الاستفهام فى لضعيفوهْ كما قلبت فى : آللهُ أذِنَ لَكُمْ) .

وتقول فى الإنكار لمن قال : كلمتُ إبراهيمَ : أإبراهيمَاهْ ، بزيادة همزة الاستفهام قبل المنكور ، وزيادة ألف الإنكار بعده لمجانسة الفتحة ، وزيادة هاء السكت للوقف . وتقول فى الإنكار لمن قال : جاءت حزامِ : أحزامِيهْ ، بزيادة همزة الاستفهام قبل المنكور . وزيادة ياء الإنكار لمجانسة الكسرة ، وزيادة هاء السكت للوقف .

واذا كان آخر المنكور ساكنا صحيحا سواءا كان السكون تنوينا أم غيره فأبقِ ما قبل السكون على أصله من ضم وفتح وكسر ، ثم حرك الساكن بالكسر ، ثم ايتِ بالياء ، ثم هاء السكت للوقف ، وانما حُرِّك الساكن بالكسر تخلصا من التقاء الساكنَيْنِ (الحرف الساكن الذى فى آخر المنكور ، وياء الانكار) تقول فى الإنكار لمن قال : جاء محمود : أمحمودُنِيهْ ، وفيه لمن قال : رأيت حسناً : أحسنَنِيهْ وفيه لمن قال : سلمت عَلَى عَلِيٍّ : أعَلِيِّنِيهْ ، بزيادة همزة الاستفهام قبل المنكور فى الأمثلة الثلاثة . وإبقاء الدال فى الأول مضمومة ، والنون فى الثانى مفتوحة ، والياء فى الثالث مكسورة . (وكسرت النون فى الأحوال الثلاثة تخلصا من التقاء الساكنَين ومجانسة لياء الإنكار) ، وزيادة ياء الإنكار ، وهاء السكت

الطريقة الثانيه :

أن يؤتى بهمزة الاستفهام قبل لمنكور ، وتزاد إنْ بين المنكور وياء الإنكار) ونظرا لأن ياء الإنكار ساكنة تحرك نون إنْ بالكسر تخلصا من التقاء الساكنين ومجانسة لياء الإنكار) ، ثم يؤتى بياء الإنكار فى جميع الأحوال ، وهاء السكت ، مع ملاحظة ترك آخر المنكور على حاله قبل الإنكار ، فتقول فى الأمثلة المتقدمة بدل أعثمانوهْ : أعثمانُ إنيهْ ، وبدل آلضعيفُوهْ : آلضعيفُ إنيهْ ، وبدل أإبراهيماهْ :

وبدل أَحزَامِيهْ : أَحزَامِ إِنيه، أَإبراهيمَ إنيه ، وبدل محمودُنيه : أمحمودُ إنيه،
وبدل أحسَنَنيهْ : أحسناً إِنيه ، وبدل أعلِيَنيه : أعليٌّ إنيه

ومحل علامة الإنكار آخر الكلام ، ولذا تقع بعد المعطوف والمفعول به ، والنعت ، فتقول فى الإنكار لمن قال : لقيت حسنا وعليا : أحسناً وعَليَنيهْ ، أو أحسنا وعليًّا إِنيه ، تُسقِطُ علامةَ الإنكار من المعطوف عليه وتُثبِتها فى المعطوف . وتقول فى الإنكار لمن قال : كلم محمدٌ عُمرَ : أعُمرَاهْ ، أو أعُمرَ إِنيه ، تُلحقها بالمفعول به ولا تلحقها بالفاعل ، لأن المفعول به هو آخر الكلام . وتقول فى الإنكار لمن قال : كافأت حسنا المجتهدَ : آلمجتهداهْ ، أو آلمجتهدَ إِنيه ، تثبت حرف الإنكار فى الصفة لأنها آخر كلام

وإذا كان آخر الكلمة حرف لين اكتُفِيَ به ، فتقول فى الإنكار لمن قال جاءنى القاضى : آلقاضيهْ ، وفى الإنكار لمن قال : رأيتُ المَبنى : آلمبناه ، وفى الإنكار لمن قال : الجيش يغزو : أيغزُوهْ

ولك أن تدخل همزة الاستفهام فى أول الجملة ، فتقول فى الإنكار لمن قال : قابلت عُمرَ : أقابلتَ عُمرَاهْ ، تدخلها فى أول الجملة كما تدخلها على الفاعل والمفعول به والمعطوف عليه والصفة . ومن أجل أن حرف الإنكار من زيادات الوقف لا يثبت فى وصل الكلام ، فاذا قيل : لقيت محمدا قيل فى الإنكار عند وصل الكلام أمحمداً ياهذا ، تترك علامة الانكار من محمداً لوصله بما بعده

حروف التذكر

هى حروف المد (الواو والألف والياء) التى يزيدها المتكلم جوازا فى آخر الكلمة التى حدث النسيان عند النطق بها مادا لها حتى لا ينقطع عن الكلام إلى أن يتذكر ما نسيه

الطريقة

ذا كان آخر الكلمة التى طرأ النسيان عند النطق بها مضموما ، زيد عليها الواو ، وإن كان مفتوحاً زيدت الألف ، وإن كان مكسورا زيدت الياء ، وإذا كان خرها حرفَ مدّ اكتفى به

الأمثلة

الجملة الآتية توضح لك أمثلة ذلك وهى : (ينبغى أنْ يدَّخِرَ الإنسانُ من المال فى صحته ما ينفعه عند مرضه) فإذا كان المتكلم قد وصل فى كلامه إلى كلمة (يدخرَ) ثم نسى ما بعدها يأتى بألف المد بعد الراء المفتوحة ويمدها قائلا : يدَّخِرَا. ويستمر فى مدها حتى يتذكر ما يريد أن يقوله بعدها ، وعند ما يذَّكرهُ يقطع المد ويصل كلمة يدخرَ بما بعدها . وإذا حدث النسيان فى أثناء النطق بكلمة (الإنسانُ) يزيدُ المتكلمُ واوا بعد النون المضمومة مادّا لها هكذا الإنسا نو .. ويستمر فى مدّها حتى يتذكر ما بعدها ، وإذ ذاك يقطع المدّ ويصل كلمة (الإنسان) بما بعدها ، وإذا طرأ النسيان عند النطق بكلمة (المالِ) يأتى المتكلم بالياء بعد اللام المكسورة قائلا المالِى ... ويستمر فى مدها حتى يستذكر ما بعدها ، وإذا حدث النسيان عند النطق بكلمة (فى) أو (ما) اكتفى بمد الياء فى (فى) والألف فى (ما)

وإذا حدث النسيان عند النطق بكلمة منتهية بحرف ساكن صحيح نحو الميم والباء فى قولك لمْ يذهبْ من مالك ما وعظك ؛ فإنك تحرك الساكن الصحيح بالكسر وتأتى بياء المد فتقول لَمِى . . . ويذهبِى . . . وقد سماها بعضهم بحروف التعايى ، وذلك لأن توقف المتكلم عن الكلام كما يحدث للنسيان يحدث عند ما يُرْتَجُ عليه ويعيا عن النطق ؟

مهدى أحمد خليل

الشيخ عبد المطلب

اجتماعياته وسياسياته

بقلم عيسى محمود ناصر

٤

لعلك أيها القارىء أدركت من كل ما مضى أن شاعرنا كان أرق من الحضر إذا تحضر ، وأجزل من البدوى إذا تبدّى ، فيجىء قوله رصينا وأسلوبه عربيا ، متكلفا حينا وسلقيا حينا آخر أما معانيه الحضرية فهى السحر الحلال والماء الزلال فى ألفاظ معسوله وأساليب خلعت عليها الحضارة موشى الثياب ومطارف الخز ومعانيه البدوية قليلة محدودة بالصحراء والوهاد وأغوارها والنجاد وذراها وبسلع وظفار واللوى ومنعرجه والنقا وكثيبه والظعائن والحدوج فى ألفاظ خشنة وإن تعجب فعجب انه بخياله فى أهل البادية وإن كان فى عصر تقدمت فيه دولة البخار وظهر فيه سلطان الكهرباء وفاض فيه النعيم على أهله حتى ألبستهم الحياة زينتها فأخذت الأرض زخرفها وازينت وتقدمت وسائل التدمير والحرب والقتال وشادوا المعاقل والحصون وناطحات السحب واختفى من الميدان الحربى الحسام والرمح والنبل والقوس والدرع والبيضة وغير ذلك وظهرت المدافع والقنابل فتقذفها على أبعاد كبيرة وقامت الغازات السامة والتدابير المحكمة واختفت الشجاعة والبأس أمام هذه الأساليب الجهنمية تارة والدبلوماسية تارة أخرى وظهرت العبارات المرنة فى سياسة الأمم والشعوب وقامت العصبة فى جنيف تحمى حمى السلم وتدفع عنه بسيف المعز وذهبه وقامت المواثيق والمؤتمرات ؛ ولكن كل هذا جعل شاعرنا يوجس خيفة من شر هؤلاء المستعمرين ولا يأمن جانبهم ويحذر قومه خدع السياسة ورعناء الحوادث فأراد أن يجعل صلة متينة بين القديم المؤثل والجديد المبهرج ويحكم الاتصال بينهما فلا يتناسى الناس عهدهم

بآبائهم وأجدادهم الذين كثيرا ما يتغنى بهم ويتمثل بقول الفرزدق :

أولئك آبائى فجئنى بمثلهم إذا جمعتنا ياجرير المجامع

وكان يخشى أن تغمر المدنية والحضارة كل شيء لا تذر من شيء إلا أتت عليه من خلق وكرامة وإباء وسنت للناس طريق الشر فرتعوا فى مراتع لهوهم ولعبهم وغيهم وضلالهم وخرجوا عما وجدوا عليه آباءهم وكثيراً ما ضرب على ذلك الوتر الحساس وبين للناس أن السعادة كل السعادة فى الرجوع إلى تعاليم تلك الديانة السمحة والإنابة إلى أحكامها وحدودها معتقداً أن فى هذا سعادتهم وإلى إحياء ما اندثر من تاريخ مجد أثيل وما عفته الأيام من أثر نبيل وتلك خطة لعمر الحق موفقة الخطا سديدة المرمى ففى عصر الإحياء فى أوربة كان من بواعثه إحياء الآداب القديمة الرومانية والإغريقية والحق أننا فى هذا العصر يكاد المتعلم منا يجهل فلاسفة الإسلام وعلماء العرب فى كل فن وأمراء البيان والشعر مع أن فى دراستهم من المتعة واللذة ما يساوى أضعاف ماندرس من أدب مصطنع وخيال كاذب وسفسطة لا طائل تحتها وإذا درس الأديب منها شيئاً أو شدا فى الأدب قليلا ترى همه موجهاً إلى أدب الغرب من شعر ونثر مع أن بيننا وبينهم من الخلاف فى العادات والطباع والمزاج ما يجعل لكل أدباً يعرف به وتفكيراً يدل عليه ومدارسنا المصرية لاتدرس إلا ما رضيته السياسة وما سمحت به من تاريخ مبتور وكل ذلك مقرون بالتمدح بدول الغرب وأساليب الحضارة والرقى فكاد الناس ينسون ما ورثوا من مجد وعظمة وتلك سياسة نجحت حينا واعتمد عليها الغاصب فى حياته ولكن المصريين خاصة والشرق عامة تنبهوا لها فأخذوا يدرسون الشيء الكثير من تاريخ أسلافهم ويحيون ما اندثر من مجد آبائهم ويتغنون بما كانوا عليه من علم ورقى وحضارة فى زمن كان الغرب فيه مطموس المعالم والصوى يهيم فى أودية الجهالة الجهلاء والضلالة العمياء وأول من أبرز تلك الفكرة وأحياها فى الشرق العلامة جمال الدين الأفغانى ثم سار الناس على نهجه وكان تلميذه الشيخ محمد عبده مفتى مصر الأكبر خير مثل لذلك وظهرت الاجتماعيات وانتقاد العادات والأخلاق الشائعة ونادى بعض المصلحين بالرجوع إلى كرم الطبع

بلد نازح ودار طروح بعد ميل من الزمان وبأس
شاعر النيل هل أتاك حديث النيل والدهر ذو سعود ونحس
ظامئ لو علمته وهو ريُّ الناس عار أديمه وهو يكسى

وهذه القصيدة غنية عن التعليق لما فيهامن جمال وعذوبة وإن أحسن تصوير بين فيه فضل جمعية المواساة ذلك التصوير الآتى وفى رأيى أنه بز فيه شاعر النيل فظهر فيه هذا الروح المصرى فجاءت قصيدته تفيض رقة وسلاسة وفيهامن المواقف ما يجعلها رواية تمثيلية ذات أربعة فصول قالها رحمه الله عام ١٩١٣ وأولها :

أسألت باكية الدياجى مالها أرقت فأرقت النجوم حيالها
باتت تكفكف بالوقار مدامعا غلب الأسى عبراتها فأسالها
تطوى على الآلام مهجة صابر قطع الزمان بريبه آمالها
فالنجم يخفق عن فؤاد كريمة رحم السحاب جفونها فبكى لها
تبكى إذا انقطع الأنيس لصبية يتضورون يمينها وشمالها
من كل ناعمة الحياة ومترف ورد الحياة معينها وزلالها

ومنها :

ويتيمة شهد الزمان بيتمها فى الحسن لم تلد الحسان مثالها
خرجت من الإسكندرية غدوة تزجى إلى أكناف مصر رحالها

ومنها :

تقتادنى الطرقات فانية القوى محنية صبغ المشيب قذالها
أربت على السبعين مالمس الخنا يوماً مآزرها ولا سربالها
وهناك أبصرها امرؤ دنس الهوى شرب المخازى علها ونهالها
لما تبينت النقيصة أمها فى حاجبيه تبينت ماهالها
نظرت إلى الوجه الصفيق وأقبلت غضبى تصك بصفحتيه نعالها

ومنها :

آدابكم يا أهل مصر غدت على خطر إذا لم تقدعوا أنذالها

لولا فتى جم المروءة أقبلت تشكو إليه عثارها فأقالها
من معشر عقدوا ضمائرهم على حب المروءة يخطبون جمالها
نظروا إلى المسكين تنظر عينه صفو الحياة ولا يذوق بلالها
فتألفوا جمعاً كأن خلالهم عرف الرياض سرى النسيم خلالها
من كل جياش الفؤاد إذا دعا داعى المؤاساة انبرى وسما لها

ولما ظهرت أعراض الانقلاب فى نساء مصر بعد الحرب العظمى ونزعن إلى السفور والتبرج تقليدا للأوربيات اللاتى قضت عليهن مبادىء الاقتصاد فى بلادهن إلى الاقتصاد فى الملابس والأزياء بتقصيرها وتضييقها على الرغم مما تقضى به الحشمة وهذا رأى الأستاذ فى سبب التقصير ولكنه قد يخالف الواقع إذ أنه التبرج والزينة والخروج عن حد الوقار والحشمة وخروج المرأة بحالة تلفت أنظار الرجال فتتعلق بهن قلوبهم واجتهاد المرأة فى إظهار محاسنها وكشف مواضع الفتنة من ملاحتها لأن الرجال قد مات كثير منهم فى تلك الحرب الضروس فقال :

مافى بنات النيل من أرب لذى غرض نبيل
أصبحن عابا فى الزما ن وسوأة فى شر جيل
ما هذه الحبرات تهفو فى الخمائل والحقول
إن ينتسبن إلى الحجا ب فإنه نسب الدخيل
أو كالحمام ؟ ظلمنها إن الحمائم غير ميل
يختلن أبناء الهوى بالدل والنظر الختول
من كل خائنة الحليل تهيم فى طلب الخليل
نقم الضحا منهن ما خجلت له شمس الأصيل
بكت الخدور جفونها وهجرنها هجر الملول
فبكل ضاحية لهن معاهد فى كل غيل
ما لابنة الخدر المصو ن وربة المجد الأثيل

أودى شفيف نقابها بكرامة الأم البتول
وانجاب جيب قميصها عن وصمة الشيخ البجيل
وعلا رنين حجولها أسفا على الذيل الطويل
فاذا مشت هتك النقاب محاسن الوجه الجميل
وجلا المقور تحته رخصا من الصدر الصقيل
تهتز عجباً بالقوا م اللدن والخصر النحيل
فى خيلع خلع الوقا ر فبان عن زند فتيل
ولقد ينم عبيرها فتحسه من نحو ميل

وهذه القصيدة غنية عن التعليق فرأيه فيها واضح ومذهبه فى السفور جلى وهنا نمسك القول عن الكلام فى شعره الاجتماعى مكتفين بما مضى ولنبدأ فى الكلام عن شعره السياسى

يظهر لنا مما تقدم فى دراسة شعره أنه كلف بحب العرب هائم بحب الدين يود لو تعود إلى الإسلام عزته وصولته الواسعة حتى يكون الشرق كله جامعة واحدة وهو من دعاة تلك الوحدة العربية ولا يحسبن القارىء الكريم أنه نسى مصر أو لم يغرم بها غرامه بنجد وتهامة بل إنه الشديد الوطنية مخلص كل الاخلاص يود أن تظل مصر تاجاً على مفرق الشرق وأن تكون معقل الضاد ومناط الدين ولقد كان لتلك النهضة المصرية أثر كبير فى خصب قريحته الشعرية وورى زنادها فاتصل بزعمائها وكان محبوباً عندهم يقدرونه حق قدره ويحلونه فى الشعر مكاناً علياً وحسبه أنه فى جنازته عرف الناس فيه هذا فمشى الزعماء والأدباء وعارفو فضله بين يديها يسكبون عبارات الأسى على فقدان هذا العلم الأشم وذلك اللواء الخفاق ومن البواعث التى حركت قلمه الحرب العظمى وما وليها من وضع الحماية على مصر وما عقب ذلك من ثورات ونفى وتشريد وسجن وأحكام عرفية حتى كان يخرج بشعره أحيانا من التصريح إلى التلميح فقال على لسان غزال فى قفص يناجى طائراً فوق شجرة ، وما الغزال سوى مصر المصفدة بالقيود والأغلال

وما الطائر سوى رمز للحرية التى يتمدح بها فاسمعه حين يقول :

نوحى بنات الروض أو فاسجعى ما أنت بالعانى ولا الموجع
لم تجدى كربى ولم تحملى ناراً عليها تنطوى أضلعى
شتان ما بين جريح بكى أوفى به اليأس على المصرع
وبين مشتاق به غلة متى يفت يوم النوى تنقع
تبكين إلفاً غاب عن وكره أو عاقه الليل فلم يرجع
آوى كما شاء إلى سرحة بات عليها طيب الموقع
حتى إذا ولى سواد الدجى ونبهته الشمس بالمطلع
طار مع الشوق إلى وكره من بلقع يهوى إلى بلقع
فبينما تبكين شوقا إذا أنت بمرأى منه أو مسمع
فأنتما بين ظلال الربا فى عيشة خفض ومستمتع

ويقول فى آخرها :

مهلا بنات القاع لاتقنطى من رحمة الله ولا تجزعى
إنّ غداً رهن لما فى غد وكل أمر فإلى مقطع

وهناك لون ثان من ألوان احتياله لإلقاء الشعر السياسى ذلك أنه عند ماتوفى المغفور له اسماعيل بك عاصم رثاه بقصيدة زاد عليها شيئاً من التلميح قائلا بعد الرثاء :

لو أن ذات الطوق لم تسجع ما بات جنبى نابى المضجع
أرقنى تحنانها موهناً من سامر الورقاء لم يهجع

وديوانه يعد تاريخا أدبيا لتلك الحوادث التى جرت فى مصر فى ذلك العصر ! لا ترى حادثة لم يكتب فى وصفها فقال فى اعتداء ذلك الأثيم على المغفور له سعد باشا فى محط القاهرة واستطرد فى بعض قصائده إلى ذكر الحرب بين الروس واليابان عام ١٩٠٥ وفى تهنئة السلطان عبد الحميد بعيد الدستور فى عيد النيروز الذى كان فيه الاجتماع العظيم بين المسلمين والأقباط عام ١٩١٩ وفى رجوع سعد من اعتقاله الأول من باريس إلى مصر ١٩٢٠ وفى عودته هو وأصحابه من

منفاهم بجزيرة سيشيل وتولية الوزارة وفى انشقاق بعض الزعماء على الوفد المصرى وفى ليلة اعتقال سعد وصحبه أول مرة وفى تولية عدلى باشا وفى مقتل السردار وفى وصول الوفد الأول إلى باريس وغير ذلك من الحوادث العظيمة فى تاريخ مصر والشرق . أما رأيه فى الحرب وأثرها فانه يراها بلاء ونقمة حيث يقول :

هى الحرب ـ لا كانت ـ بلاء وشقوة لكل وضيع فى الورى ورفيع
تدرعت الآفاق من ظلماتها ضوافى أستار لها ودروع
فلا ضوء إلا ما ذكا من شواظها يشق الدجى فى زفرة ودلوع
كأن ذكاء العلم فى كف وائد طوتها المنايا فى قرار نزوع
إلى الله يشكو الناس طول مغيبها فهل يتدانى فجرها لسطوع
أرى السلم حسناء الزمان فما له بضرتها فى صبوة وولوع
تولى ضلالا عن جمال لهذه ومال إلى وجه لتلك شنيع
أرى السلم أما يا زمان تكفلت بنيها على بر وحسن صنيع
وتلك هى الغول الضروس عليهم فهم بين مطرود لها وصريع
أناخت بهم تفتن فى مهلكاتها على صور من كيدها وفروع
ففى الجو فى جوف البحار على الثرى تليع يحث الموت خلف تليع

وإذا تتبعت ما قيل فى تلك الحوادث من شعره ما نشر منه وما لم ينشر هالك الأمر وعرفت قدر هذا الشاعر الكبير المتواضع الذى لم يكن له من الأمر إلا أنه كان مشتغلا بالتدريس فى هذا العهد وكان القائم على وزارة المعارف مستشارها وجبارها « دانلوب » فأخذ ينفذ سياسة مرسومة يكم الأفواه ويحطم الأقلام ويعقل الألسنة ويكتم الأنفاس ويضيق الصدور فلا غرو أن ترى لهذا الشاعر السياسى المصرى شعرا كثيرا لا يتجاوز خويصة نفسه فإذا تجاوزها فإلى الأقربين من إخوانه الأوفياء وعارفى فضله وأدبه فكان يسمعهم الشىء الكثير من هذا الشعر السياسى ووصف ما أصاب مصر من عنت وإرهاق ولا يلجأ إلى الإعلان عنها فى الصحف لشدة الرقابة وقيام الأحكام العرفيه وقلم المطبوعات ولولا تحمله أعباء الوظيفة وانشغاله بأعباء حياته لرأينا من آياته

البيانية عجبا أى عجب ولا انتفع الناس بفضله وشعره أما تلاميذه فقد كانوا يسمعون منه هذا الشعر ويحترمون فيه تلك النزعة الشريفة وهذا الإخلاص العظيم ويمكن القول بأنه أذكى الحماس فى نفوس الشباب وقوّى تلك الحركة وساعدها بقلمه ولسانه كما فعل البارودى وعبد الله النديم فى الثورة العرابية وحسبنا دليلا على فضله قصيدته الكبرى التى قالها فى الحرب العظمى يوم إعلان الحماية الإنجليزية على مصر عام ١٩١٤ ولو لم يكن له غيرها لكفاه شرفا بها واقتدارا وإنها لفيض من سحر بيانه أربت على مائتى بيت من الشعر الرصين والقافية المتينة ودقة الوصف مع الجزالة ونبل الغرض وقد أسماها أستاذنا الكبير الشيخ أحمد الإسكندرى « أم القصائد لأنها حوت بلاغة تتدفق وفصاحة تترقرق ولا تقل عنها علويته فى مدح أمير المؤمنين على كرّم الله وجهه التى لا يسع سامعها إلا أن يخشع إكبارا للمادح وإجلالا للممدوح » ولعل الباعث له على اختيار هذه القافية وإنشاء تلك المعلقة الكبيرة كما يقول هذا البيت الذى كان يترنم به

رويدك حتى تنظرى عم تنجلى ... غيابة هـذا العارض المتألق

وأولها :

هلال الهدى فى دارة المجد أشرق ... ودونك ليل الغى بالرشد فامحق

ويا علم الأعلام كم خفقت قلو ... ب قوم إلى مرأى حفافيك فاخفق

أطل على « الفسطاط » أصبح أهله ... ثقال الرزايا بين عان ومطلق

يساقون من أيدى الليالى وريبها ... مرارة صاب بالهوان مرنّق

فيا هل أتى ابن النيل ما حل بعده ... بمصر وما أدراه بالنيـل ما لقى

ومنها :

بلاء على القطرين أغطش ليله ... ضحا يوم نحس بالخطوب مؤوق

دجت يوم إعلان الحماية شمسه ... فيالك من يوم على مصر أورق

قضينا به يوم المدلّه بالأسى ... وبتنا على ليل السليم المؤرق

عشية يدعو « مكسويل » سراتها ... لعيدين يوم الجمع يوم التفرق

يبدىء عرض النيل من شاء جانفا فننشده والخطب بالخطب يلتق
« رويدك حتى تنظرى عم تنجلى غيابة هـذا العارض المتألق »

وقد جمع فى هذه القصيدة كثيرا من الأمثال والحكم العربية وقد طاوعته فيها قريحته الصافيه وحميته الأبية وكان مطلعا على مجرى الحوادث وأسماء القواد والبلاد التى خاضت غمار الحرب ومما قاله فى « دنلوب »

ثلاثين عاما يسكب النيل حسرة على العلم دمع الواله المتشوق
ولولاه كانت مصر بالعلم روضة تلألأ بالأنوار للمتأنق
أدنلوب ما تلك المبانى رفيعة متى ما تسامق هامها النجم تسمق
وما العلم أن يعلو رتاج وقبة على فدن بالأرجوان مزوق

وهذه القصيدة حرية بأن تدرس كما تدرس المعلقات فإنها لا تقل عنها فى شىء ولكنها تفضلها كثيرا وتكاد تكون خلاصة أفكاره وما فى نفسه وهى من أجل مفاخره فى ديوانه . وأول شعر له فى هـذه الثورة ما قاله فى اعتقال سعد وصحبه إلى مالطه ثم أخذ شعره يتوالى فسرى فى النفوس يبعث القوة والحماس كما قال فى اعتداء الجنود الإنجليزية على قرية العزيزية مما لا يزال عالقا بالأذهان ولولا أن الترجمة طالت ، وأن تلك القصائد بعضها نشر فى الجرائد لذكرنا شيئا منها تبيانا لفضله ولسنا نغالى إذا قلنا إنه شاعر السياسة والإسلام وهذان الغرضان أهم ما فى ديوانه فلست تعده غزلا ولا مداحا كما أغرم بهما كثير من الشعراء

ولنكتف بشىء مما قاله من قصيدته الدالية عند سفر سعد للمفاوضة عام ١٩٢٣

حمدنا لملك النيل حسن صنيعه وللملك المحبوب يرتجل الحمد
بنى ملكه نخما على ود قومه كذاك عروس الملك يرفعها الود
وأنزلهم فى روضة من شمائل توالى بها الاحسان والكرم العد

ومنها :

وقالوا أصاب الدهر سعدا أوما دروا بأن الليالى تحت رايته جند

ومنها :

فسر فى ذمام الله ترعاك عينه على خير حال ما تروح وما تغدو

عرفناك ألقينا لك الامر كله لك الصدر المحمود من قبل والورد
فان سنحت ياسعد سانحة المنى فليس يضيع الحزم سانحة تبدو
ومن لم يفز بالدر والبحر جازر يفته إذا غشى سواحله المد

وتلك لعمر الحق نفحة سياسية من نفحات هذا الشاعر الكبير ارتفع بها صوته فى وقت لم ترتفع فيه أصوات زملائه الشعراء كشوقى وحافظ وانظر إلى هذه الحكمة التى ساقها فى تضاعيف كلامه :

ومن لم يفز بالمد والبحر جازر يفته إذا غشى سواحله المد

ولعل شاعرنا قد سبق شعراء هذا العصر إلى تسجيل هذه الحوادث كما كان يخبر عن نفسه ولا يفوتنا فى ختام هذا الغرض أن نذكر مأثرة من مآثره تلك هي عنايته فى أول حياته بالتدريس فى القضاء الشرعى بوضع الشعر التمثيلي والغنائى قبل أن يعنى بهما شوقى بك فوضع روايات شعرية ونثرية عربية جاهلية كروايتى المهلهل وامرىء القيس ورواية ليلى العفيفة التى وضعها عام ١٩٠٩ ولكنها لم تتم إذ نسيت عنده وعاجلته المنون قبل إتمامها وقد كان غرضه أن يحي المسرح العربى ويجمله بالأدب المصفى ولولا كثرة أعماله فى مدرستى القضاء الشرعى ودار العلوم لنهض بالتمثيل العربى نهضة محمودة ولعل أبلغ ما يوصف به بيان هذا الشاعر الكبير قوله يصف شعر حافظ :

يراعته سحر البيان لعابها ومقوله سيف أغر صقيل
تراه اجتلى أبكارها عربيـــة لها غرر وضاحة وحجول
حجازية الألفاظ قد سبقت لها مطارف من إحسانه وذيول

فرحم الله هذا الشاعر الطيب الذكر الميمون النقيبة العالى النسب وأسكن شاعر الإسلام فسيح جنات السلام .

عيسى محمود ناصر
المدرس بمدرسة الفيوم الأميرية

« هـــو »

بقلم محمد موسى عفيفى

ذو كبرة وعظموت، وسلطان وملكوت، ومِرّة ومصالة، وطائلة ومحالة، دون سطوته سطوةُ المرهوب من الأُسدان، الموتور من الذؤبان، وهيبته هيبة القياصرة الجبارين، والمردة من الأملاك الظالمين.

ليس انجليزيا فى طبعه فُتار، ولا فرنسيا يستخفه نغم الأوتار، ولا مصريا يزينه الرأى السديد، ويغلبه الطبع الحديد، ولا يابانيا فى عينيه خزَر، وفى عقله حصافة وكبر، ولا هنديا له فلسفة الحكماء، ولا صينيا يعبد أرواح الآباء، ولا ملكا من ذوى التيجان، ولا ملكا كرضوان، ولا عفريتا من جند سليمان، وهو مع ذلك يُطبِّق ممالك لم يصل العلم ولن يصل إلى حصرها وعدها أو شبرها وذرعها، يسيطر عليها وحدهُ بلا أعوان ولا أجناد، ولا ولاة ولا قواد، ولا مراكب تجرى فى الدأماء ولا طائرات تحلق فى السماء ولا كهرباء ولا بخار، ولا حديد ولا نار، يكر على خصمه بلا سلاح ويرديه بلا أسياف ولا أرماح، عظم حياته نضال والحرب بينه وبين عدوه الواحد سجال، ولكنها حرب لا تفنى الرجال ولا تيتم الأطفال، ولا تذهب بالأموال، ولا يتغير بها وجه الأرض، ولا يدنس بها العرض.

هو: — يَضيفُك ولكن لا يطالب قِراك، ويحيط بك ولكن يأبى أذاك، أينما تكن يدركك، أو تغلقْ فى الأرض استخفاء يتبعك وإذا ترقيت إلى السماء بأسباب ترقاها وراءك بلا سبب ولا كلاله أو اختضت الماء فى بحر لجى تخوَّضه فى إثرك بلا ملالة، وإذا كنت وحدك ثناك، أو كنت وواحدا ثلث، أو كنت واثنين ربع، أو كنت وثلاثة خمس.

وهذه سبيله فى تَضيُّفِه ليس له عنها محيد، فالملوك والأقوال عنده سواء،

والخواص وجمّاعُ الناس من الدهماء، لا فرق بين النساء والرجال، والغانين والأطفال، وأولئك جميعا والوُعُل فى الاجبال. لا يؤثر بطلعته جنسا على جنس، ولا باعتماده غيره فى نَوبته نفسا على نفس ولا حيا فى الدور والقصور على ميت فى الحفر والقبور، ولا كائنا على كائن، ولا متحركا على ساكن، ولا نائما على يقظان، ولا محزونا على فرحان، ولا حالاً على ظاعن، ولا أمينا على خائن، ولا عامرا فى الأرض على غامر.

هو: — خلقه الله تعالى لا يعزى إلى بلد ولا ينسب إلى أحد، لا زوجة له ولا ولد، وليس له أب ولا أم ولا خال ولا عم، ولا صهر ولا نسيب، ولا شانىء ولا حبيب، ولا عدو ولا صديق، ولا جار ولا رفيق، ومع تملكه ليس له إماء ولا عُبدان، ولا لجين ولا عقيان.

هو: — ذو أديم تكتحل به عيناك، وتأخذه حدقتاك، وجسم بلا روح، تخفق فيه الريح لا يأكل ولا يشرب، ولا يرضى ولا يغضب بجد ولا يلعب، ولا يمت بماتة إلى الإنسان، ولا إلى أسراب الطير أو فصائل الحيوان، لا رأس له وكأنه يفكر، ولا عقل وكأنه يدبر، ولا أنف وكأنه يشم، ولا فم وكأنه يتطعم، ولا لسان وكأنه يتكلم ولا عين وكأنه ناظر، ولا قلب وكأنه ذو خاطر، ولا أذن وكأنه يأذن، ولا وجدان وكأنه يفرح ويحزن. ولا بطن ويحتويك ولا ثأر وقد يبتليك.

هو: — الذى تقطعه إربا إربا فلا يتقطع، وتكشر له عن نابك فلا يتوجع، وتهجوه فلا ينتقم منك، وتعبث به فيعفو عنك، وتفرح فلا يهنيك، وتحزن فلا يؤاسيك. وتقترب فلا يدنيك، وتفتقر فلا يغنيك، وتَغْنى فلا يطريك، وتتسلق على فراشك فلا يخفف همك، وتبيت بحسة سوء فلا يذهب غمك، وتوجّس منه خيفة إذا هجع، ولا تأبه له إذا ودع، وتوحشه إذا نمت، وتؤنسه إذا هببت، إذا أغدق ملأ الخافقين، وزحم الثقلين.

هل عرفته؟

هو: — قد يكون أطول من الدهر، وقد يكون أقصر من عمر الزهر،

وتارة يكون كسنة وأخرى كسِنه ، وطوراً أحسن من بيضة فى روضة ، وآخر أسمج من هيضة ، هو الذى تقرعك فيه الأوهام ، وتسكرك الأمانى والأحلام ، وتستهل لمصرعه ذات الطوق وتتغنى فرحا بهزيمته الورق ، وتغور فى آخر حياته صغار النجوم ، ويستلذ استنشاق النسيم .

هل عرفته ؟

هو : — غربى وشرقى ، أوربى وأمريكى . عربى وفارسى نجدى وحجازى ، شامى ومصرى ، حادث وقديم ، جديد وترميم ، شيخ وطفل ، هرم وكهل ، محبوب ومكروه ، مقبول ومجبوه ، ثقيل خفيف ، وغم ولطيف .

هو : — الذى تهتف باسمه العاتق فى الخدر ، والملك فى القصر ، والعانى فى الأسر ، والجندى فى الثغر ، والمحب اكتوى بنار الهجر ، والغريب فى البلد النازح ، وذو الأمل الطامح ، والمريض اغتره الألم ، وتصعده السقم ، وتأكل من الداء وعز عليه الدواء .

هو : جنة الخالين وجنة الشاجين ، وجهنم المدينين ، وربيع الزاهدين ، ومسرح المجان والمستهترين ، ومهوى أعداء النفوس وسالبي النفيس ، وصديق العلماء والحكماء والأدباء والشعراء والقواد والزعماء

هو : — الزنجى الأديم ، التبرى النجوم ، الذى لا مجال فيه للحظ ، ولا تعارف إلا باللفظ .

هل عرفته ؟

هو الذى أشكى ملك الشعراء قديما فقال فيه :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى بصبح وما الإصباح منك بامثل

محمد موسى عفيفى

التصـــــــوير

فى شعر ابن الرومى

بقلم أحمد أحمد بدوى

قد يكون ابن الرومى أنبغ شاعر عرفته اللغة العربية ، فى الرسم والتصوير ، حتى ليصح أن يقال فيه : إنه رسام استغنى بقلمه عن ريشته ، وبقرطاسه عن لوحته ؛ يروعك فيه حين يرسم منظراً بشعره ، دقة إحساسه بكل مافى المنظر من لون أو حركة أو شكل ، وشدة استقصائه لجزئياته ودقائقه ، ليؤلف من ذلك كله صورة كاملة تنبض بالحركة والحياة .

ولقد أعان ابن الرومى على نبوغه فى هذا الفن ما كانت عليه حواسه من القوة واليقظة ، التى لا يغيب عنها شىء ولا يمر بها شىء إلا أدركته وتأثرت به ؛ فلابن الرومى حاسة ذوق قوية شرهة ، وهو لذلك يحسن تصوير لذائذ الطعام ، وله حاسة سمع متنبهة لمختلف الأصوات وتمييز حلوها من قبيحها ، تواقة إلى سماع الغناء ، ورنات الأعواد والمزاهر ، ولهذا كان المحسنَ المجيد إذ وصف صوتاً حسناً ومدَحه ، أو صور لنا مغنياً قبيحاً وهجاه ، ولا تقل حاسة الشم عنده عن أختيها ، وهو بتلك الحاسة ، يميز بين روائح الأزهار وشذا الرياحين ؛ أما حاسته البصرية ، فكانت قوية متقدة ، لا يفوتها شكل من أشكال الصورة ، ولا لون ولا حركة ، فهى متيقظة دائماً لكل لون من الألوان التى تنسجها أشعة الشمس ، ولكل حركة أو سكون ، وفضلا عن تنبه حواسه ، كانت نفس ابن الرومى قوية الملاحظة ، دقيقة الموازنة بين الأشياء ، وربط الأواصر بين جزئياتها ؛ ليستقيم من الجميع وحدة متينة الصلات .

لم يكن تصوير ابن الرومى من هذا النوع الذى يربط بين شيئين لمجرد اتفاقهما فى اللون أو الطعم مثلا ، ولم يكن كذلك مثله مثل آلة التصوير الشمسى ، تنقل

الصورة المرئية فحسب ، مجردة عن الاحساس والشعور ؛ ولكنه تصوير شاعر حى ، يتأثر ، ويحس ، فيصور لك الصورة كما أحسها ، ومن هنا امتاز ابن الرومى عن سواه . من الشعراء الوصافين ، الذين لايزيد الواحد منهم على أن يكون آلة ناقلة إن لم يشوه الصورة أخرجها لاروح فيها ولا حياة .

وسأنقل الآن قليلا من صوره ؛ قال يصور يوماً خرج فيه مع اثنين من أصدقائه ، لصيد الطير :

وقد اغتدى للطير ، والطير هُجَّعُ ... ولو أوجست مغْدَاى مابتْن هُجَّعا
بِخِلَّين تمّا بى ثلاثة إخوة ... جسومهمو شتى ، وأرواحهمْ معا
مطيعين أهواء توافَتْ على هوى ... فلو أرسلت كالنَّبل لم تعدُ موقعا
إذا ما دعا منا خليلٌ خليله : ... بأفديك ، لباه مجيباً فأسرعا
كأن له فى كل عضو ومفصل ... وجارحة ، قلباً من الجمر أصمعا
فثاروا إلى آلاتهم ، فتقلدوا ... خرائط حمرا تحمل السم منقعا
محملة زاداً خفيفاً مناطه ... من البندق الموزون ، قل وأقنعا
وقد وقفوا للحائنات ، وشمروا ... لهن إلى الأنصاف سوقا وأذرعا
وجدت قسىُّ القوم فى الطير جدَّها ... فظلت سُجودا للرُّماةِ ، وركعا
فظلّ صحابى ناعمين بيؤسها ، ... وظلت على حوض المنية شرعا
طرائحُ من سود وبيض نواصع ... تخال أديمَ الأرض منهن أبقعا
نؤلف منها بين شتى ، وإنما ... نشتت من ألافها ماتجمعا
فكم ظاعن منهن مزمع رحلة ، ... قصرنا نواه دون ما كان أزمعا
وكم قادم منهن مرتادِ منزل ... أناخ به منا منيخ ، فجعجعا
هنالك تغدو الطير ترتاد مصرعا ... وحسبانُـها المكذوبُ ترتادمرتعا
تثوب بها قد أمتعتك وغادرت ... من الطير ، مفجوعا به ، ومفجّعا

إنّه فى هذا الشعر لا يرسم صورة واحدة فحسب ، ولكنّه يرسم صوراشتى ، لو نقلت إلى لوحة التّصوير ، كوّنت شريطا للخيالة ، مفعما بالصّور الحيّة المتحرّكة

فابن الرومى قد خرج للصيد ، قبل شروق الشمس ، حين تكون الدنيا هادئة ساكنة ، وحين لا يزال الطّير هاجعا فى وكره ، مطمئنّا فى سباته ، لا يدرى ما يخبّئه له القدر ، ولو أنه كان يدرى ، ماهجع فى مكانه ، ولا اطمأن فى نومه ؛ واستصحب ابن الرومى معه خلّين من أصحابه ، اتحدت أهواؤهم ، واتّفقت غاياتهم ومشاربهم ، وبعد أن استعد الجميع ، وتقلّدوا آلاتهم ، وملئوا خرائطهم بالسهام التى يصيدون بها ، ساروا حتى أتوا إلى حيث الطّيور ، فوقفوا ، وشمروا للصيد سيقانهم وأذرعهم ، كيلا تعوقهم الملابس عن الجرى ، وعن سرعة تصويب السهام ، وبعد أن وقفوا مشمرين سوقهم وأذرعهم ، أعملوا فى الطّير قسيهم ، وأرسلوا سهامهم بلا رفق ولا هوادة ، فظلّت الطيور سجدا للرماة وركعا ، تهوى إلى الأرض أمامهم ، وظل الصحاب فرحين بمنظر بؤسها ، قريرى العين بورودها مورد الردى ؛ أما الأرض فصارت مرقّشة ، بما طرح فوقها من الطير الأسود والأبيض ، حتى إذا أتموا صيدهم أخذوا يجمعون هذه الطرائح ؛ ليئوبوا بها إلى منازلهم .

ذلك شريط (سينمائى) لرحلة إلى الصيد ، لا ينقصه شكل ولا حركة . هذا ولم ينس ابن الرومى أن يحدثنا عما يحس به نحو الطير المسكين ، فكثير منه كان يغد ومبكرا يريد أن يرتاد مكانا جديدا ، فعاجله الردى ، وحال بينه وبين ما كان يريد ؛ وكثير منه كان قادما يحسب أنه سيأوى إلى منزل صالح ، فما هو إلا أن دهمته السهام فلم يتمتع بمقامه الجديد ، وكم من طيور فجعت فى أحبائها ، أو فجع فيها أحباؤها ؛ والصائد يئوب بها متمتعا جذلان ، ولا يدرى أنها تركت من الطير مفجوعا به ومفجعا .

وهاكم صورة أخرى ، يحدثكم فيها عن غروب الشمس ، لدى خميلة ملأى بالنّور ، مفروشة ببساط العشب النضير ، قال :

إذا رنقت شمس الأصيل ، ونفّضت   على الأفق الغربى ورسا مذعذعا
وودعت الدنيا ، لتقضى نحبها ،   وشول باقى عمرها ، فتشعشعا
ولاحظت النوار ، وهى مريضة ،   وقد وضعت خدًّا إلى الأرض أضرعا

كما لاحظت عوّاده عين مدنف توجع من أوصابه ما توجعا
وظلّت عيون النور تخضل بالندى كما اغرورقت عين الشجى لتدمعا
يراعينها صورا إليها روانيا ويلحظن ألحاظا من الشّجو خشّعا
وبين إغضاء الفراق عليهما كأنهما خلا صفاء تودعا
وقد ضربت فى خضرة الروض صفرة من الشمس، فاخضر اخضرارا مشعشعا
وأذكى نسيم الروض ريعان ظلّه وغنى مغنى الطير فيه فسجعا

أحسب أن نقل تلك الصورة الرائعة إلى النثر يقلّل من قيمتها، ولا إخالكم إلا مقدرين روعة ذلك الشعور الذى يحسه ابن الرومى بكمال الاتصال بين أجزاء الطبيعة بل بكمال المودة والائتلاف بين هذه الأجزاء، فالشمس حين مالت إلى الغروب، أخذت تودع الدنيا آسفة على وداعها، بعد أن صحبتها طول يومها، فهى تلحظ النّوار الذى ملأ الخميلة، وقد وضعت خدها على الأرض فى ضراعة، دهشة من الفراق تلحظه بعين حزينة على فراقه، تنظر إليه كما ينظر المريض المدنف إلى عواده، فهو يفتح عينيه حينا، ثم يشتد به الألم فيقفلهما حزينا أسفاء أما النّوْر فانه يخشى هبوط الليل، ويخاف فراق الشمس، فتخضل عينه بالدمع حزنا على فراقها، ويظل يرنو إليها، كأنه يعتب عليها أن تركته وحيدا لظلمة الليل؛ وهل تجد تعبيرا أدل على جزع النّوّار لفراق الشمس من قول ابن الرومى:

يراعينها صوراً إليها روانيا ويلحظن ألحاظاً من الشّجو خشّعا

ولم يكن هذا الحزن الذى بدا على الشمس والنّوار ساعة الفراق إلا لأنهما خِلاّ صفاء تَوَدّعا. ولم يفت ابن الرومى لون العشب الذى يكسو أرض الخميلة فقد صارت خضرته مشعشعة بتلك الخيوط الصفر التى ترسلها أشعة الشمس، ولا هذا النسيم الذى كان يهب عليها. ولا الطيور التى كانت تغرد فوق الأشجار

وقد يكون من أبدع صوره الفنية تلك الصورة التى رسم فيها المهرجان، وفرح الدنيا به، ورسم حجرات الأمير الذى مدحه. بما فيها من زخارف، وضيوف، وحرس، وموائد ومغنّين، وأنصتْ إليه يصف جمال الدنيا فى هذا المهرجان، وكيف كانت تضج بالفرح والسرور حتى لكأن السرور يثأر لنفسه

من الهموم والأحزان ، ولم تقصّر الدنيا فى أن تظهر جمالها وزينتها ، فلبست فيه كل ما تملك من عُدَد الزينة ومظاهرها ، وأظهرت كل ما كانت تصونه فى صوانها ، وأبدت ما كانت تخفيه من أزهار ناضرة ، وخضرة تكسو الأرض ، حتى بدا منظرها فاتناً للألباب والعقول ، قال :

يمّن الله طلعة المهرجان كل يحن على الأمير الهجان
مهرجان كأنما صورته كيف شاءت مخيرات الأمانى
وأديل السرور واللهو فيه من جميع الهموم والأحزان
لبست فيه حفل زينتها الدنيا ، وزافت فى منظر فتّان
وأذالت من وشيها كل برد كان قدما تصونه فى الصّوان
وتبدّت مثل الهدىّ تهادى رادع الجيب ، عاطل الأبدان
فهى فى زينة البغى ولكن هى فى عفة الحَصَان الرَّزَان
كادت الأرض يوم ذلك تغشى سر بطنانها إلى الظهران
وتعود الرياض مقتبلات ناعمات الشكير والأفنان

ثم ينتقل إلى رسم حجرات الأمير فى هذا اليوم السعيد ، فلا يكاد يفلت منه فى هذا الرسم لون أو حركة أو شكل ، فالحجرات مزخرفة مزينة ، اعتادت أن تستقبل الضيوف وأن تملأ بهم ، قد قام فيها الكماة الشجعان صفين ، لابسين دروعهم ، قابضين على سيوفهم ، مطرقين إلى الأرض مغضين هيبة من اجتلاء وجه الأمير الذى تجلى على السرير فى جلال ووقار وهيبة حتى إذا استقر فى مجلسه قام بين يديه المادحون والمثنون ضارببين الصدور بالأذقان ، لا من كبر فى الأمير ، ولكن إجلالا لوجهه الكريم ، وبعد أن تحدثوا عن مآثره وآلائه نفحهم بعطاياه وانصرفوا إلى خوان كأنه قطع الروض عليه ما شئت مما تشتهيه قال :

زينت يوم نعمه حجرات جد موطوءة من الضيفان
حجرات ميممات بناها من فضول المعروف أكرم بان
لم يكن يقتنى المساكن حتى يتقن المجد أيما إتقان

فأذيلت فيها تهاويل رقم قائمات بزينة المزذان
ثم قام الكماة صفين من كل عظيم فى قومه مرزُبان
كلهم مطرق إلى الأرض مغض وعلى سيفه هنالك حان
وتجلى على السرير جبين ذو شعاع يحول دون العيان
يمكن العين لمحة ثم ينهى طرفها عن إدامة اللحظان
فله منه حاجب قد حماه كل عين ترومه بامتهان
فاستوى فوق عرشه بوقار وبحلم من الحلوم الرِّزان
ثم قام الممجدون مثولا ضاربين الصدور بالأذقان
ليس من كبرياء فيه ولكن كل وجه لذلك الوجه عان
فنثوا سؤدد الأمير ، وعدوا فيه آلاءه بكل لسان
حين لم يجشموا التزيد ، لا بل ما تعدّوا ما حصّل الكاتبان
فقضوا من مقالهم ما قضوه . ثم آبوا بالرِّفد والحملان
بعد ما أرتعوا الأنامل فيما لا تعدّاه شهوة الشهوان
من خوان كأنه قطع الرو ض ، وإن كان فى مثال خوان
فوقه الطير فى الصحافى وحاشى ذلك الطير من جفاء الجفان

فاذا انتهى الأمير من وليمته ، أحب أن يمتع نفسه ببعض الملاهى فأخذت القيان تعزف وتغنى على الأعواد والمزاهر ، وابن الرومى يصور لك فى لباقة كيف كن يعطفن على أدوات الغناء كأنهن أمهات يعطفن على من يرضعن ولم يترك رسم أثر الغناء فى وجوه السامعين وأنه سرور وشجن وسلوى ، وحزن يشوبه جذل ، وجذل فيه حزن قال :

ثم سام الأمير سوم الملاهى وخلا بالمدام والندمان
وقيان كأنها أمهات عاطفات على بنيها حوان
مطفلات وما حملن جنيناً مرضعات ، ولسن ذات لبان
ملقمات أطفالهن ثديّا ناهدات كأحسن الرمان
مفعمات ، كأنها حافلات وهى صفر من درة الألبان

كل طفل يدعى بأسماء شتى بين عود ومزهر وكران
أمه دهرها تترجم عنه وهو بادى الغنى عن الترجمان
أوتى الحكم والبيان صبيا مثل عيسى بن مريم ذى الحنان
لو تسلى به حديثة رزء لشفى داء صدرها الحران
عجباً منه كيف يسلى ، ويلهى مع تهييجه على الأشجان
فترى فى الذى يصيخ إليه أمرات المحزون والجذلان

فهأنت ذا ترى كيف انتقل فى هذه القصيدة من صورة إلى صورة ، ومن شكل إلى آخر ، من غير أن يفلت منه منظر أو حركة ، وعرض عليك الصور متتابعة كما يُعْرض شريط الخيالة .

لاتقف قوة ابن الرومى فى التصوير على رسم المناظر المحسة فحسب ، ولكنه بارع ماهر فى تصوير المعانى ، التى تختلج بالنفس ، فهو يتعمق فى رسمها وتحليلها ، حتى يصل بك إلى الغاية التى يريدها ، قال يصف دهاء ممدوحه :

لك مكر يدب فى القوم أخفى من دبيب الغذاء فى الأعضاء
أو دبيب الملال فى مستها مين إلى غاية من البغضاء
أو مسير القضاء فى ظلم الليل إلى من يريده بالتواء
أو سرى الشيب تحت ليل شباب مستحير فى لمة سمحاء

فأنت تراه يخبر عن المكر بأنه أخفى من دبيب الغذاء فى الاعضاء ، ولكنه لم يجد هذا كافياً فى تصوير خفاء المكر ، فانتقل إلى ماهو أخفى ، وهو دبيب الملال بين مستهامين عاشقين ، ثم لم يرض بهذا ؛ فهو أخفى من مسير القضاء فى ظلمة الغيب ، بل أخفى من سرى الشيب تحت ليل الشباب ، تلك دقة فى التصوير امتاز بها ابن الرومى .

أحمد أحمد بدوى

نَظرة ناقــدة

فى كتاب « مَقْتَل عثمان »

تأليف الأستاذ محمود الغراوى

خرجت من المدرسة ، بعد ما أنفقْتُ فيها مجهود اليوم الدراسىّ . شاعراً بما يشعر به كل مدرس أدّى واجبه ، من نفَاد القوة ، وفتُور المنّة ، وقد اعتدْت أن أصرف قليلا من وقت الأصيل فى مجلس أخوىّ ، يختلف إليه طائفة من الإخوان الكرام ، فنرفه بالحديث وقراءة الصحف عن أنفسنا ، ونَحْمِلُ أعصابنا على أن تنسى أو تتناسى ماسرى إليها من لُغُوبٍ وإعياء

أدّيت التحية ، وجلست إلى أحد الأصدقاء ، فرأيته مُكباً على القراءة فى كتاب فسألته : فِيمَ تقرأ ؟ فقال : فى « مقتل عثمان » . ثم أثنى على الكتاب ماشاء أن يثنى . وناولنيه لأتصفحه ، ولأنظر فيه نظرة عاجلة ، تهيّء لى أن أُلِمّ بموضوعه بعض الإلمام ، وأن أحكم على الكتاب بما تركته هذه النظرة الخاطفة من أثر فى نفسى .

أما الكتاب فى جملته فشاهد بما صرفه المؤلف من جهد فى استقراء المراجع التاريخية ، وما بذله من العناية فى جمع شتات الموضوع ، وتنسيق المقدمات ونتائجها ، وإبراز الفكرة فى صورة سهلة جذّابة من الأساليب العربية الناصعة .

وَأَرَدْتُ ألا تكون قراءتى للصفحات الأولى من هذه الرسالة قراءة سطحية : لأنى أعتقد أن أوائل الكتاب لها مكانتها فى تَعَرُّفِ نَزعات الكاتب واتجاه أفكاره ، ومبلغ بحثه من الدقة أو التساهل ومقدار محصوله من الغزارة أو الضآلة .

لو لم يَعْرِض المؤَلِّف الكريم فى غضون مباحثه إلى شىء يتّصل بالدين الإسلامى الحَنيف لمررت بمباحثه مرور الطيف ، فإن المشكلات التاريخية كثيراً ما تكون مثاراً لاختلاف علماء التاريخ ، وتشعب آرائهم ، ولكل

مؤرخ رأيه ومذهبه ، لا يهمنا ذلك ما دام اتفاقهم واختلافهم لا يَمسّان شيئاً من أصول الدين وغاياته ، مَسًّا لا يمكن السكوت عليه .

ولكن المؤلف أبى إلا أن يعرض لبعض ما يتصل بالدين وأصوله اتصالا وثيقاً ، ولَيتَهُ ، إذ تعرّض لذلك ، عالجه بروح تشف عن تَثَقُّفٍ قويم أخذ به نفسه فى نشأته الدراسية ، أو عن اطلاع واسع كان يجب أن يلجأ إليه قبل أن يطلق لنفسه العنان فى هذا الميدان الذى هو أحرج الميادين . وأدعاها إلى زَلَلِ الأقلام ، وزيغ الأحلام ، إذا جال فيه الجائلون على تهاون منهم ، أو تقصير فى الحذَر والاحتياط .

لم أشَأ أن أكون سيِّىء الظنّ بالأستاذ المؤلف ؛ لأنى إن أسأت الظن خشيت قول الله تعالى « إنّ بعض الظنّ إثم »

ولم أشَأ أن أسِيء الظن ؛ لأن ذلك يكلفنى أن أعتقد لأوّل وهلة أن المؤلف قد درس علم الكلام ، وهو المعروف بعلم التوحيد ، دراسة واسعة دقيقة ، حتى تكونت له فى هذا العلم ملَكةٌ تجمَعُ إلى الرسوخ العلمى المنطق روحاً دينية سليمة ؛ أو يكلفنى على أيسَر تقدير ، أن أعتقد أنه ، لما عزم على تاليف رسالته ، استَعَدّ كما يستعد المؤلفون ، إلى الخوض فيما قد يَعنّ له ، من شئون دينية ، فأفسَحَ لنفسه مجال البحث فى تلك الشئون ، وتوسّعَ فى دراستها إلى حدٍّ يمكنه من الفهم الملائم ، ويمهد له السبيل إلى إصدار الحكم الصحيح فى المسائل الدينية التى يَتصدّى لها .

ولست بقادر على أن أعتقد هذا أو ذلك ، فإن بعض ما سأورده على القارئين من كلام حضرته ، يدل دلالة واضحة على أنه لم يكن عند تأليفه الرسالة مَعْنيًّا بالبحث التمهيدى ، الذى كان من الواجب عليه القيام به ؛ ليُقْدِرَهُ على الحكم الصادق ، كما أشرت لذلك . وأما عدم التسليم بأن له فى علم الكلام ملكة ناشئة من تَثَقُّفه بهذا العلم فى مرحلة من مراحل حياته الثقافية ، فذلك ما لا أخصه به ولا أقصره عليه وحده ، فإن شأنه ، وشأن إخوانه الجامعيين ، وشأن طلبة المدارس الثانوية والابتدائية فى ذلك النقص سواء ، لأنهم جميعاً محرومون هذا

التثقيف، بحكم مناهجهم التى يدرسونها، فلم يكونوا كالأزهريين ومَنْ على شاكلتهم، ممن تفرَض عليهم الدراسة العالية لهذا العلم الجليل .

لهذا أحسَنْتُ الظن، وحملتُ ما رأيت على عدم دراسة المؤلف لعلم الكلام وكبحت كل ما جال بنفسى من الخواطر التى تميل بي إلى إساءة الظن، ولو أنى وجدت فى شعورى مَسَاغاً لسوء الظنّ لكان موقفى من المؤلف غير هذا الموقف الرحيم ، ولصُلْتُ عليه فى ذلك الميدان بقلم أحدَّ شبَاة، وأوجع وَخزاً، من هذا القلم الكهام .

قال المؤلف عند الكلام عن الخلافة :

(إنّ الرسول لم يؤثر عنه قبل وفاته أنه نصّ على نظام فى الدَّوْلةِ الإسلامية بعد وفاته)

جعل الحكم الذى ساقه فى هذه العبارة قضية مسلّمة، لامِرْيَةَ فيها ولا تردّد، ولكنه لما أراد التعليل لهذه القضية، تردّد بين علتين. وللجد العاثر لم يكن هذا الحكم من السلامة بحيث يَجدُ له فى ميدان القبول مجالا هيِّناً. ولم تكن العلّتان من الصواب بالمثابة التى يتاح فيها للعقول المثقفة، وللمبادىء الدينية الأساسية أن تقف عندها موقف القبول والتسليم والإقرار .

وطريق المنطق يستلزم أن أبدأ بنقد هاتين العلتين، وإبداء ما انطوتا عليه من الخطل، حتى أنقضهما من أساسهما؛ ثم أكرّ على هذا الحكم بالفحص، لأنتهى إلى إظهار مبلغ نصيبه من الفساد أو السداد .

التعليل الأول : ذكر المؤلف أن السبب فى عدم نصّ الرسول على نظام حكومى للمسلمين بعد وفاته (أنّ المرض منعه من ذلك)

لبثت حينا أقلب هذه العلة على وجوهها لعلى ألمح من خلالها تأويلا مقبولا، ينجى المؤلف من مؤاخذة دينية فلم أُوَفقْ إلى شىء من ذلك، ووضح لى أن هذه العبارة لم تصدر إلا عن عدم دراية لما يجب أن يعتقده المسلم فى حق الله تعالى وفى حق رسله عليهم السلام .

ما معنى أن المرض لم يمكن الرسول من إخبار قومه بنظام حكومى يتبعونه

بعد وفاته؟ إنْ كانَ مراده أن المرض منعه من التفكير فى رسم خطة للحكومة الإسلامية، ومن الإخبار بهذه الخطة، فقد دلنا هذا المؤلف على أنه يعتقد أن الرسول شبيه بمن يسنون القوانين الوضعية من غير الرسل؛ فى أنه يبتكر القوانين بما يوحيه إليه تفكيره الشخصى، ويشرّع الشرائع الإسلامية بما يثمره عقله، وتنتجه قريحته، يمليه عليه خاطره. ولاريب أن هذا لا يتفق مع القاعدة الدينية المشهورة، وهى: أن المشرّع هو الله جل شأنه، وأنّ الرسول لا ينطق عن الهوى. وأن كلام الرسول المتعلق بالتشريع ما هو إلا تفسير لمجمل القرآن وتفصيلٌ له، وأن الرسول فى حديثه ملهَم من الله تعالى لا من وحى عقله، وإشارة ضميره.

وإن كان المراد أن الرسول قد أُلهِمَ خطة التشريع الخاص بالحكم الإسلامى وكان ذلك الإلهام فى فترة المرض، وأن المرض قد حال دون استطاعته التعبير عما أُلهِمَهُ، فإن فى ذلك من فساد الرأى ما لا يخفى على أولى الأبصار. أليس التسليم بذلك معناه رَمْىُ الحكمة الإلهية المنزهة بالنقص وعدم الكمال؟ فما معنى أن العليم الخبير يلهم رسوله أن يبلغ قومه ضربا من ضروب التشريع فى أمر ذى بَالٍ، فى وقت يعلم فيه أن الرسول يعجز العجز كله عن التبليغ؛ ويعلم أيضا أن علته هذه هى علة وفاته، والوفاة ينقطع بعدها التبليغ؟ ألا يكون الإلهام حينئذ مظهراً من مظاهر العبث: لا ينتهى بتبليغ، ولا يؤدى إلى مقصود؟ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا!

على أننا إذا سلّمنا جدَلا أن الإلهام المذكور قد حصل فى وقت العلة، فلم يكن ثمّةَ دليل على أن المرض قد ثقلت وطأته فى كل مُدّته ثقلا عقَلَ لسان الرسول عن الكلام؛ كما لم يكن هناك دليل على أن الرسول لم يصدر عنه شيء من الأحاديث فى خلال مرَضتِهِ التى لقى فى نهايتها ربه.

وإن كان مقصد المؤلف أن الإلهام قد حصل قبل المرض، فَأمْهَلَ الرسول التبليغَ حتى فَجأهُ المرض، فعاقه عنه، فإن التسليم بهذا الرأى يجر إلى ما جرّ إليه الرأى السابق، مِمّا اللهُ مُنزّهٌ عنه؛ فضلا عما هنا من وصف الرسول الكريم

بما ينافى وظيفة الرسالة من التراخى المفيت للغرض المروم من رسالته ؛ والرسول من ذلك براء .

التعليل الثانى : إذا كانت فكرة المؤلف فى التعليل الأول قد هوَت به إلى هُوَّة سحيقة من البطلان ، فإنه لم يكن فى فكرته الثانية ناجيا من الارتطام فى حمأة من الخطأ مَشوبة بالمخاطر والمهالك . فقد زعم فى جملة ما زعم ، أن الرسول « كان يرى أن هذا التشريع ليس من جوهر الدين فى شىء »

إن جوهر الدين يرمى فى بعض نواحيه إلى إصلاح العقول بهدم ما بنته فيها الأحقاب الطويلة من خرافات وبطلان ، وبناء صروح عتيدة من العقائد الحقة ، ولا يكون ذلك إلا إذا آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . ذلك يرمى جوهر الدين فى ناحية أخرى من نواحيه إلى إصلاح الحياة الاجتماعية ، لا يستطيع أحد أن ينكر هـذا ؛ فإن الدين لم يجىء قاصرا على إصلاح الفرد عقلا وخلقا وعبادة ؛ ولـكنه جاء مع ذلك مصلحا للحياة الاجتماعية ، والنهوض بها ، حتى يكون بين الإصلاح الفردى والإصلاح الاجتماعى مناسبة قوية يترتب عليها سعادة الفرد والجماعة .

أفبَعْدَ هذا يكون تشريع النظام الحكومى ليس من جوهر الدين فى شىء ؟ أليس من أجلّ مقاصد الدين الإسلامى إصلاح الحياة الاجتماعية بكل ما تنطوى عليه هذه الحياة من شئون سياسية ، وأدبية ، ومعاملات زراعية ومالية ونحو ذلك ؟ إنّ نظرة عاجلة فى فهارس الكتب الفقهية تبرز لك فى صورة ناصعة مبلغ عناية الدين بهذه الحياة ، حتى إنك لترَى أن قسم المعاملات أفسح نطاقا ، وأوسع مدًى من قسم العبادات . وإذا كان الدين يهتم بما فى الحياة الاجتماعية من بعض نواحيها الجزئية كالمزارعة والربا والرهن ، أفيُعْقَلُ أن يُغْفِل تشريعا لضرب من ضروب هذه الحياة له على - جل ما يندرج تحتها من ضروب شتى - سيطرة وسلطان ، وهو ضرب الحياة السياسية ؟

ولقد زعم المؤلف أيضا أن الرسول « لم يشأ أن يقطع فى الأمر بشىء مخافة

أن يؤدى ذلك إلى الانقسام وقيام الفتن بين المسلمين؛ لأنه كان على علم تام بما كان بين المهاجرين والأنصار من خلاف؛ إذ لو جعل الخلافة لأحدهما ثار الآخر؛ فرأى ترك الأمر للمسلمين يفصلون فيه كما يشاءون.»

فَلْتَنْظُرْ معى بربّك أيها القارىء! انْظُرْ كيف يُعْكَس المنطق، وكيف يستنبط الباحث من المقدمات نقيض نتائجها! أفى ترك الرسول تشريعاً خاصاً بالخلافة، مع علمه باختلاف المهاجرين والأنصار حَسْمٌ للخلاف بينهم فى المستقبل؟ أفى ترجيح الرسول أحد الجانبين على الآخر إثارة للجانب الآخر؟ وإذا كان الأمر كذلك فَمَنْ غير الرسول يكون ترجيحه أجلب للوفاق وأمْحَى للشقاق؟ وإذا كان الرسول قد رأى ذلك الخلاف قد سَرَى داؤه فى حال حياته فسكت عن علاجه، وهو الذى جاء لمعالجة أمثاله، فَمَنْ ذا الذى يستطيع بعد الرسول علاجه؟ وإذا كان الرسول قد قضى على روح الخلاف العصبى التى كانت مسيطرة على العرب فى جاهليتهم، فهل يُعْقَل أن يَتْرُكَ الخلاف بين المهاجرين والأنصار، وهو خلاف نشأ فى الإسلام؟ أمِنَ المعقول أن يميتَ خلافاً جاهليًا ليُحْيِيَ على آثاره خلافاً جديداً، لا يأمن المسلمون مَغَبَّته، ولا يحمدون مصائره؟

إن المنطق المعقول لَيَقولُ: إن الرسول إذا رأى أن ترجيح أحد الجانبين على الآخر منفعة للمسلمين فَعَلَ بلا هوادة؛ وإذا فعل صار حكمه حكماً شرعياً، يجب على المسلمين اتباعه، والذود عنه، ومناصرة الجانب الراجح، وردع المرجوح إذا سوّلت له نفسه النزاع؛ وبذلك يستقر الأمر فى نصابه، ويكون حكم الرسول دواء ناجعاً يقضى على الأحقاد فى مخابئها، ويسل السخائم من بين الأحناء.

ثم انظر بعد ذلك إلى ما ذكره الباحث، وقد أراد أن يسوق من مُسْتَنْبَطَاته ما يُؤْنِسُ إلى التعليل الثانى، ويزيده قوة ورجحانا. فقد قال «ولا غرو فقد كانت نفس الرسول عليه الصلاة والسلام مُشْرَبة بالروح الديموقراطية التى كانت تسود العرب منذ زمن الجاهلية»

نراه هنا مُغْفِلا أو متجاهلا ما للإسلام الحنيف ومبادئه القويمة من تأثير فى نفس الرسول، مبلّغ شريعة الإسلام. لقد أرجع ما تجلى فى روح الرسول عليه السلام من نزعة (ديموقراطية) عالية إلى تأثير البيئة الجاهلية التى ألبسها المؤلف ثوباً فضفاضاً من (الديموقراطية).

وأيّة (ديموقراطية) سيطرت على الجاهليين؟ أتراها فى البداوة من ساكنى الوبر؟ لقد كان نظام البَادِينَ فى حياتهم الاجتماعية قائماً على نظام القبيلة؛ وكان رئيس القبيلة الذى تسمع كلمته، ويطاع أمره، ويُصْدَرُ عن رأيه، يكتسب حق هذه الرياسة، لا بطريق الشورى والانتخاب؛ ولكن بما كان له ولأسرته من قُوَّةٍ دونها قُوَى الأُسَرِ الأخرى، التى تؤلف هذه القبيلة؛ وذلك النظام القَبَلِى يرسم فى أذهاننا صورة مجسمة لنظام الحكومات الملكية الاستبدادية، التى ليس فيها لغير الملك والمقربين إليه شأن فى إدارة الأمور، وامتلاك أعنّة السلطان. فلم يكن للأسر المتوسطة أو الضعيفة فى نظام القبيلة إلا أن تُوَجَّهَ فتتوجّه، وتُسَيَّرَ فتسير؛ وبين ذلك النظام و(الديموقراطية) بُعْدُ ما بين المشرقين.

أم ترى الديموقراطية فى القاطنين فى المدن من أهل مكة والمدينة والطائف وغيرها؟ إن أم هذه القرى مكة؛ وكانت أعظم المدن العربية فى الجاهلية، وكان جل قطانها من قريش، وقد عرفنا فيما عرفناه من نظمهم الاجتماعية، ما تقف أمامه الديموقراطية، فى مسكنة وحياء. كان لذوى القوة فيها من بيوتات قريش الاستئثار بالعزة والسلطان، وبكل ما كان سِمَةً للرياسة ومظهراً للجاه والشرف، من سقاية للحاج، واختصاص بمقاليد الكعبة، وما إلى ذلك مما لا مجال لحصره، وأما المستضعفون من أهل هذه المدينة فلم يكن لهم صوت يسمع، ولا رأى يُبَالَى، ولا سمة ترفع، بل كانوا كأن لم يكونوا.

دَعْ ذا وذلك، وسَلْ نفسك: أكان من المعالم الواضحة للديموقراطية ما عرف به العرب فى الجاهلية، وذاع بين مدريّهم ووبريّهم من تفاخر بالأنساب وتباهٍ بعراقة الأصول. وتسامٍ بأصالة المحاتد: يرى أعلاهم نسباً أنه بالقياس

إلى سواه فى طبقة أرفع، وأفق أعلى؟ ليس فى وسعى أن أرغم عقلى على أن يعتبر أن هذه الحالة ذات نسب قريب أو بعيد بالديموقراطية .

لعلَّ المؤلف يقصد أن عرب الجاهلية لم تكن لهم حكومة نظامية، تجمع منشورهم، وتُضْويهم تحت لواء واحد، بل تركت طبيعة بلادهم وأحوالهم كل قبيلة تخط لنفسها سبيل الحياة منفردة عن سواها، فعاشوا بعيدين عن معاناة الإكراه القانونى، ومقاساة الخضوع الحكومى، ضاربين فى مفازة من الحرية غير محدودة الأطراف. إن كان ذلك ماأراده قلنا: إن هذه الحالة الموصوفة تدعو إلى الفوضى والهمجية، بل هى بذاتها نفس الفوضى والهمجية، فإن كان من معانى الديموقراطية أن تضرِبَ على القوم أطناب الفوضى، فذلك ما لا علم لنا به، ولا تسيغه عقولنا الضعيفة .

يتضح من ذلك أنه لم يكن فى الجاهلية معنى للديموقراطية، يصلح أن يكون أصلا لتلك النزعة الديموقراطية السامية، التى سطعت شمسها المشرقة فى فؤاد رسول الله، وأرانى هنا فى حاجة إلى أن أوجه نظر حضرة المؤلف إلى الأسباب الجوهرية التى جعلت رسول الله آية الخلق الكريم، الذى يشتمل على الديموقراطية وسواها .

إن محمداً، كسائر الرسل، قد ميزه الله، كما ميزهم، على سائر الناس بالفطرة الطاهرة والنفس الفاضلة، ليُعِدّه لما اختاره له من الرسالة، وقد لحظته العنايه الربانية بالتأديب منذ أن أشرق على هذه الأرض، حتى لقد قال «أدبنى ربى فأحسن تأديبى» فليس بدعاً أن يظهر أثر هذا التأديب فى نفس الرسول حتى قبل رسالته، فتجلت الديموقراطية وسائر المكارم فى كل تصرفاته وأعماله وأقواله، فى أطوار حداثته وشبيبته وكهولته، حتى أرغمت قومه على أن يلقبوه بالأمين. وعلى أن يجمعوا على نعته بكل فضيلة، يستوى فى ذلك حاسدوه ومحبوه، ولما بعثه الله إلى الناس، وأنزل عليه القرآن الكريم، كان فيما جاء به القرآن من المكارم غذاء طيب لروحه عليه السلام، وغرس لمعانى الديموقراطية السليمة فى نفسه الشريفة. قال تعالى «ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك

فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر » أليس فى ذلك بناء لأسمى صروح الديموقراطية ، وأنخمها صورة ؟

ولنعد إلى الحكم الذى حاول المؤلف إثباته بالعلتين المذكورتين فنقول : إن ذلك الحكم ليس له مرتكز من الصحة والصدق ، وإن الرسول لم يلحق بربه إلا بعد أن سَنَّ للناس سنة الحكومة التى ستقوم بعد لحوقه بالرفيق الأعلى ، وتلك السنة واردة فيما أوحاه الله إليه فى كتابه العزيز ، وهى بلا مراء سنة الشورى . قال تعالى فى وصف المؤمنين المطيعين « وأمرهم شورى بينهم » فهذه الآية الشريفة تدعو صريحا إلى الشورى فى كل الأمور التى تكون الشورى فيها من وسائل الوصول إلى الحق . ولا خلاف فى أن قيام الحكومة ، واختيار أولياء الأمور من الشئون المشكلة العويصة ، ويزيدها عِظماً وجلالا أنها لا تهم شخصا أو أشخاصا معدودين ، ولكنها تهم ألوف الألوف من المسلمين ، على اختلاف ألسنتهم وألوانهم ، لما فيها من سلامة دولتهم ، وإقامة معالم دينهم ، وحراسة مصالحهم ، وتنظيم حياتهم ، وبث روح السكينة والطمانينة بين ربوعهم ، وتوجيههم إلى ما يكون به سعادتهم فى العاجلة والآجلة . فإذا كانت الشورى مطلوبة فيما هو دون هذا الأمر ، فهى بهذا الأمر أحرى وأجدر .

وقال تعالى مخاطبا رسوله « وشاورهم فى الأمر » فالرسول ـ وهو من هو عصمة وذكاء ، تعنو له صعاب الأمور ، وتَنْجلى أمامه ظلمات المشاكل ، وتبرز أمامه الحقائق ناصعة منيرة بدون تكلف أو إجهاد فكر — يؤمر بالمشاورة ، وهو فى غير حاجة إليها ؛ فلا مناص من أن يكون لذلك حكمة . ومن الحكمة أن يتبع الناس بعد الرسول سنة المشاورة فى أمورهم ، ولا سيما ما كان منها جسيما ، كولاية الأمر . وبحسبى أن أسوق هنا ماعقب به العلامة البيضاوى هذه العبارة القرآنية تفسيراً لها قال: « أى فى أمر الحرب ، أو فيما يصح أن يشاور فيه ، استظهاراً برأيهم وتطييبا لنفوسهم ، وتمهيداً لسنة المشاورة فى أمته » ففى عبارة المفسر الأخيرة ما يفيد أن الرسول كلف الاستشارة لتكون طريقة لأمته تنهجها فى أمورها ، ومن أمورها الحكومة ، فينبغى حينئذ ألا تكون إلا حكومة شورية ، فالقول

بان الرسول قد مات ولم يوجد أى نص على نظام الحكم من بعده قول بعيد عن الصحة ، فإن النص الإجمالى يغنى عن النص التفصيلى ، وقد نصت الآيتان السابقتان نصا إجمالياً على شورية الحكم ، إذ هما بمثابة أصل عام يقرر مبدأ الشورى فى كل ما يصح التشاور فيه ؛ ولما كان نظام الحكم من أول ما تنطبق عليه هذه القاعدة كما أوضحنا ، كان فى ذلك النص كفاية تغنى عن النص التفصيلى بشأن نظام الحكم وغيره ، وذلك شأن المبادىء والأصول العامة التى يشرعها الدين لتطبق على جزئياتها .

ولنا دليل عملى على ذلك ، فقد اتجه المسلمون على أثر وفاة الرسول إلى انتهاج خطة التشاور فيمن يتولى الخلافة ، وانتهى التشاور بهم إلى اختيار خليفة منهم ، فكان اتجاههم هذا مثالا فعلياً لتطبيق ماتلقنوه عن الرسول من شئون الدين ، ومظهراً حيا للروح الإسلامية الحقة التى غرسها الرسول فى نفوسهم ، وصورة حقة لاشك فيها ، تفسر لنا ما أجمل القرآن فى سياق الكلام عن المشورة ، وتظهر لعيوننا أثر ذلك الإلهام الذى بعثه الرسول إلى نفوس أصحابه بما قال وبما فعل ، وتوضح لنا قانون الدين الذى سنه لحكم المسلمين ، فلم يكونوا فى اتجاههم إلى الشورى مدفوعين بدافع اجتهادهم الشخصى المحض ، الذى لا أثر للدين فيه ، بل كانوا مسوقين بالقانون الدينى نفسه ؛ إذ لم يكن معروفا عنهم فى ذلك الحين إلا السير فى كل ما يقولون ويفعلون بمحاذاة الدين وحده ، فجاءت شوراهم مظهراً للتشريع الإسلامى الذى تلقنوه من القرآن والسنة القولية والعملية . هؤلاء هم الذين نتخذ عملهم حجة ، كما اتخذها أجيال المسلمين من قبلنا حجة .

فالقرآن بنصه ، والرسول بسنته ، والصحابة بتطبيقهم شوراهم على ما تعلموا من القانون الدينى ، كل ذلك يحتم علينا أن نقرر أن الشورى هى قانون الإسلام وأن ما عداها مناف لهذا القانون ، وليس من الدين فى شىء ؛ والله الهادى إلى سواء السبيل ؟

طه طه عبد الفتاح

في الشَّيْب والشباب

للشاعر عبد الستار سلام

رَاعَنِي الشَّيْبُ مُذْ أَنَاخَ رِكَابَهْ   فَوْقَ رَأْسِي، وَقَدْ لَمَحْتُ حِرَابَهْ

مُشْرِقَاتٍ، كأنَّهُنَّ نُجُومٌ   بَيْنَ لَيْلٍ هَتَكْنَ مِنْهُ حِجَابَه

يَسْتَحِثُّ الْمنونَ عَدْوًا، ولمّا   نسأمِ الْعَيْشَ أَوْ نملّ طِلاَبَه

* * *

يا رَسُولاً؛ وَلَيْسَ إلاَّ نَذِيرًا   فَوْقَ هَامِ الرِّقَابِ يَتْلُو كِتَابَه

يُنْذِرُ الْمَرْءَ بِالْفَنَاءِ، وَيَمْضِي   يَحْفِرُ الْقَبْرَ، أَوْ يُهِيلُ تُرَابَه

كُلُّ مَنْ فِي الْوُجُودِ هَلْكَى، وَلَكِنْ   آفَةُ الْهُلْكِ أَنْ تُجَرَّعَ صَابَه

* * *

يا لَقَوْمِي، وَيَا لَصَحْبِي، وَوُلْدِي   لِقَتِيلِ الشَّبَابِ يَرْثِي شَبَابَه!

زَارَهُ الشَّيْبُ فِي رَبِيعِ صِبَاهُ   فَلَوَى غُصْنَهُ، وَأَنْشَبَ نَابَه

وَغَزَا لَيْلَهُ الْبَهِيمَ، فَوَلَّى   مِنْهُ ذُعْرًا، وَمَا أَطَاقَ غِلاَبَه

وَسَوَادُ الْعُيُونِ ذَابَ، وَذَابَتْ   حَبَّةُ الْقَلْبِ لَمْ تُغَادِرْ صُبَابَه

* * *

لاَ تَلُومُوهُ إنْ عَرَاهُ ذُهُولٌ   وَاُعْذِرُوهُ؛ فَمَا أَشَدَّ مُصَابَه!

وَاتَّقُوا اللهَ، لاَ تَقُولُوا: نَهَارٌ   أَوْ وَقَارٌ، أَوْ عِفَّةٌ، أَوْ مَهَابَه

أَوْ رِيَاضٌ تَفَتَّحَ النَّوْرُ فِيهَا تَشْرَحُ الصَّدْرَ أَوْ تُسَرِّي اكْتِئَابَه
إِنَّمَا الشَّيْبُ جَذْوَةٌ مِنْ لَهِيبٍ تَأْكُلُ الْجِسمَ : عَظْمَهُ وَإِهَابَه

✡✡✡

يَا شَبَابِي ، وَأَيْنَ مِنِّي شَبَابِي ؟ لَسْتُ أَنْسَى نَعِيمَهُ أَوْ حَبَابَه
وَكُئُوساً رَشَفْتُهُنَّ رَحِيقاً فِي زَمَانٍ رَشَفْتُ فِيهِ رُضَابَه
بَيْنَ شَرْبٍ مِنَ الرِّفَاقِ كِرَامٍ إِنْ تَوَارَى الشَّرَابُ ـ مَاتُوا صَبَابَه
كَبُدُورٍ تُظِلُّهُنَّ سَمَاءٌ فِي وِدَادٍ وَأُلْفَةٍ وَصَحَابَه
لَا يَرَوْنَ الْحَيَاةَ إِلَّا مَتَاعاً وَاجِبُ الْمَرْءِ أَنْ يُصِيبَ لُبَابَه
وَلِبَاسُ الْحَيَاةِ جِدُّ قَصِيرٍ وَمَتَاعُ الشَّبَابِ بَرْقُ سَحَابَه

✡✡✡

وَشُمُوسٍ مِنَ الْكَوَاعِبِ غِيدٍ يَجْتَلِبْنَ الْهَوَى ، وَيَفْتَحْنَ بَابَه
نَاعِسَاتِ الْجُفُونِ ، لَوْلَا لِحَاظٌ مَا أَصَابَ الْحَدِيدَ إِلَّا أَذَابَه
رَاوِيَاتٍ مِنَ النَّعِيمِ ، تَرَاءَتْ مِثْلَ زَهْرِ الرُّبَى إِذَا الطَّلُّ صَابَه
نَاعِمَاتٍ ، قُدُودُهُنَّ غُصُونٌ ضَرَبَ الْحُسْنُ فَوْقَهُنَّ قِبَابَه
بَاسِمَاتٍ ، تُرِيكَ دُرّاً نَضِيداً يَفْضَحُ الصُّبْحَ لَوْ يَقُدُّ نِقَابَه
آمِرَاتٍ ، كَأَنَّهُنَّ مُلُوكٌ فَوْقَ عَرْشِ الْجَمَالِ تَجْلُو رِحَابَه
وَعُرُوشُ الْجَمَالِ ذَوْبُ لُجَيْنٍ وَقُلُوبٍ مِنَ الْغَرَامِ مُذَابَه
غَازِيَاتٍ ، فَكَمْ عَلَى الرَّوْضِ صَرْعَى يَا صَرِيعَ الْغَرَامِ ، صِفْ لِي شَرَابَه
لَاهِيَاتٍ ، وَمَا هَمَمْنَ بِأَمْرٍ يُغْضِبُ الْحُرَّ ، أَوْ يُثِيرُ ارْتِيَابَه

دَانِيَاتٍ إِلَى الْقُلُوبِ وَلَكِنْ دُونَكَ الْجَوَّ ، فَابْغِينَّ عُقَابَه
جَمِّلِ النَّفْسَ بِالْفَضَائِلِ ، وَاجْعَلْ مِنْكَ لِلطُّهْرِ وَالْعَفَافِ رِقَابَه

* * *

نَقْطَعُ اللَّيْلَ فِى صَفَاءٍ وَلَهْوٍ وَسُرُورٍ وَرِقَّةٍ وَدُعَابَه
وَحَدِيثٍ مِنَ الْأَمَانِىِّ عَذْبٍ لَمْ يَشِنْهُ الْخَنَى ، وَلَا النُّكْرُ شَابَه
ذَاكَ عَهْدُ الشَّبَابِ : لَهْوٌ وَجِدٌّ فَانْدُبِ الْحَظَّ إِنْ طَوَيْتَ ثِيَابَه

* * *

يَا يَرَاعَ الْأَدِيبِ ، مَنْ لِفُؤَادٍ أَوْشَكَ الشَّيْبُ أَنْ يَدُكَّ صَوَابَه !
كُنْتُ قَبْلاً إِذَا شَكَوْتُ إِلَيْهِ أَفْصَحَ النُّطْقَ ، فَاسْتَبَنْتُ خِطَابَه
مَا عَهِدْتُ الْخُطُوبَ هَزَّتْهُ يَوْمًا فَشَكَا ضَعْفَهُ وَوَالَى اضْطِرَابَه
بَلْ رَزِينًا لَدَى الْبَلَاءِ صَبُورًا دُونَهُ الصَّخْرُ وَالْحَدِيدُ صَلَابَه

* * *

لَا تَرُعْنِى ! فِدَاكَ كُلُّ سَوَادٍ ؛ لَيْسَ فِى الشَّيْبِ لِلرِّجَالِ مَعَابَه
ذَاكَ سَيْفٌ سَلَّتْهُ لِلْمَنَايَا يَحْذَرُ الدَّهْرُ أَنْ يَمَسَّ قِرَابَه
مُذْ رَآهُ الزَّمَانُ خَفَّ إِلَيْهِ وَحَنَى رَأْسَهُ ، وَخَافَ حِسَابَه
وَإِذَا الدَّهْرُ عَيْنُهُ عَنْكَ نَامَتْ نَمْ قَرِيرًا ؛ فَقَدْ أَمِنْتَ وِثَابَه

* * *

زَادَنِى جِدَّةً ، فَزِدْتُ زَمَاعًا وَزَمَاعُ الْمَشِيبِ أَلَّا تَهَابَه
سَوْفَ أَحْيَا ـ كَمَا حَيِيتُ ـ كَرِيمًا لَا أُبَالِى جَفَاءَهُ أَوْ عِتَابَه

عبد الستار سلام

المغتر بالظواهر

الصفرد والأرنب

من كتاب كليلة ودمنة

قد كان للصفرد ماوًى للسكنْ — فغاب عنه مدة من الزمن
فراق أرنبا وعاشت فيه — وأقبل الصفرد يدّعيه
فقالت الارنب : هذا موضعى — فهات برهانا على ما تدّعى
وكثر الجدال والكلامُ — واحتدم النزاع والخصامُ
فقال ان شئت ـ تعالى نحتكمْ — هناك سنور لدى البحر هرمْ
غذاؤه الحشيش والأثمارُ — ودأبه الصوم والاستغفارُ
فقصـــدا مقره فى الحال — والقيا ثَمّ عصا الترحال
فركع المحتال ثم سجداً — وأظهر الخشوع والتعبداَ
فسلما عليه باحتراسِ — وسألاه الحكم بالقسطاسِ
فقال : سمعى قد وهى ، وبصرى — من شظف العيش، وطول السهرِ
فاقتربا منى ، وأسمعانى — فإن طول النسك قد أعيانى
دونكما نصيحة الحكيمِ — من قبل أن أبدأ فى التحكيمِ
تقوى الاله خير زاد يُدّخرْ — والصدق بين الناس محمود الأثرْ
وطالب الحق الصُّراح يربح — ومدعى الباطل ليس يُفلِحُ
وليس للانسان من دنياهُ — الا الذى ينفع فى أخراهُ
فقدما من صالح الأعمال — ولا تَضلا باكتناز المال
ولم يزل يُوليهما الإرشاداَ — والنصح ، حتى أسلسا القياداَ
فانتزع المُسُوح والأسمالا ⊛⊛⊛ — وعاد وحشا فاتكا قتالا
فأنشب الاظفار فى فريستهْ — وقرّ عينا بنجاح حيلتهْ
وهكذا المغتر بالظواهرِ — يصير طعمة لكل غادرِ
فسالِم الناس ، وكن على حذرْ — تعش سعيداً آمناً من الخطرْ

عمر اسد الجمل
بالزقازيق الثانوية

ديوان الأطفال

الزهـــــــــرة

نَاضِرةٌ جميلهْ تهتزُّ فى الخَميلهْ
تنفَحُ بالعبيرِ فى عودها النضير
تَفيض بالمعانى للشاعر الفنَّان
تَزْدَان فى البكورِ باللؤلؤ المنثورِ
منظرها بديعُ إذا أتى الربيعُ
تأخذ بالعقولِ فى ناضر الحقولِ
تفيض بالإلهام لريشة الرسام
معجزة الصنَّاع وآية الإبداع
يقول من يراها : سبحان من بَراها

عبد المنعم سالم

في أربع وعشرين ساعة

بقلم مأمون شرف الدين

المدرس بمدرسة دمياط الابتدائية الأميرية

هأنذا أجلس إلى مكتبي ، بعد أن هدأت الأصوات ، ونامت العيون ، حتى ما تسمع صوتاً ، أو تحس نأمة ، القلم بين أصابعي ، وأنا أحاول أن أكتب ولكنه يأبى على القول ، وينفر مني نفاراً شديداً .

مكثت بين أخذ ورد ، أطيع الفكر ويعصيني ، وأقترب منه فيقصيني ، فأهز القلم في يدي هزاً عنيفاً ، فلا يزداد إلا إصراراً وعناداً - اعتصرت ذهني ، واستجمعت فكري ، فما تفتحت مغاليقه . ولا لانت قناته ولا أسلس قياده ، فحمدت الله الذي لا يحمد على مكروه سواه ، وأكثرت من حمده حين تذكرت أن تلك الساعة ليست من ساعات الامتحان ، حتى لا أخرج صفر اليدين ، وأرجع بخفي حنين .

وهنا تذكرت فجأة قول حسان بن ثابت :

وإن امرأ يمسي ويصبح سالما   من الناس - إلا ما جنى - لسعيد

فقلت : يرحم الله حسانا ، فلقد أطلق لساني من عقاله ، وأفلت ذهني من إساره ، فما علي لو تحدثت اليوم عما صادفني في يومي من خير أو شر ، وما طالعني من نحس أو سعد .

أما الخير فقد عرفناه ، وأما الشر فقد ألفناه ، وأي خير يصيبه مثلي وقد غادر منزله قبل أن يتنفس الصبح ، يهرول إلى مدرسته فما يلوي على شيء ، وأخوف ما يخافه أن يكون الميعاد قد فات فيداخله الخوف والارتباك ؛ لأن القانون سيف مصلت على الرقاب ، لا تعرف الرحمة طريقا إلى قلبه ، وسرعان ما يرى نفسه وجها لوجه أمام صبية ، أكبرهم لما يبلغ الثانية عشرة من عمره ، فيظل معهم طول يومه في صخب ولجب ، وحوار ونقاش ، وانقباض وانبساط ،

فما ترى إلا بركانا يثور ويخمد ، ونارا تتأجج وتهمد ، وماء يغلو ويفور ، ثم يفيض ويغور . وهكذا دواليك ، ولا يأتى آخر اليوم ، حتى يخرج منهوك القوى مهدم الأعصاب ، مصدوع الرأس .

أرأيت أنه ليس فى هذه الحياة سرور أو ما يشبه السرور ، وليس فيها خير ولاما يشبه الخير ، اللهم إلا من ناحية واحدة ؛ هى أن تكون قد أديت واجبك ، وأرضيت ضميرك ، وهديت غيرك الطريق ولو ضللت ، وأنرت له السبيل ولو احترقت !.

ولا تكاد تلقى ذلك العبء الثقيل عن كاهلك ، وتنصرف عن عملك ، طلباً للراحة والاستجمام ، حتى يأخذ عليك الطريق شخص لايمت لك بصلة ، ولا تربطك به أواصر صداقة ، ولا وشيجة نسب . وإذا هو يهز يدك هزاً عنيفا . كأنما لج به الشوق ، وأضناه البعد ، وأمضه الفراق ، فتأخذك الدهشة ؛ لأنك تعلم أن هـذا المخلوق بعينه ، هو ذلك الذى يتعثر فى أذيالك أينما مشيت ، فأين سرت رأيته برأسه المدور ، وجسمه المكور ، وكرشه المترهل ، وقامته التى اقتربت من منكبيه ، والتصقت بكتفيه ، نعم هو ذلك الذى لا يترك شخصاً حتى يتبعه ، ولا حديثا إلا خاض فيه ، فهو « روتر » الأخبار ، وأضحوكة السمار . — وبعد — فإن ما لقيته طول يومك من عناء ونصب ؛ لأهون عليك من هذا المصاب ، وما ظنك بمن يرغمك إرغاما على أن تستمع لأقواله ولو تصدع منك الرأس ، ويأبى إلا أن تنزل على إرادته ، وأن تكون رهن مشيئته . ثم هو يحدثك بعد ذلك عن سمو بيانه ، وجميل أدبه ، وما يخرجه للناس كل يوم من رائع حديثه ، ونفثات قلمه . وبعـد أن يصف غيره من كتاب هذا العصر بالجهل والغرور ، والحماقة والقصور ، يأبى إلا أن يقرن القول بالعمل ، فيخرج حزمة من الورق قد تقادم عليها العهد ، وتوالى عليها الزمن ، ثم يأخذ فى تلاوتها ، بصوت منكر ، ملوحا بيده فى الفضاء ، فيجتمع الصبية حولنا ليشهدوا هذا الفصل التمثيلى البديع .

وإنه لينظر إلى شزرا حين يرى أنى انصرفت عنه ، ويعتب علىّ عتابا مرًّا

فأقسم له جهد أيمانى أنى لست منصرفا إلا إليه ، وأظل أحرك رأسى بحركة ثابتة وعلى وتيرة واحدة — ولقد يصمت الفينة بعد الفينة ليرى أثر السحر الحلال من نفسى ، ومقدار تأثرى بما أنتجه ذهنه الوقاد ، وعبقريته الجبارة — وأظل مغيظا محنقا ، ويظل هو يسترسل فى لغوه ، ويتمادى فى ثرثرته ،حتى ينفد صبرى ويذهب حلمى — ولكنى أظل صابرا ، أحرق الأرّم ، وأعض بنان الندم ، وألعن أبالسة الجحيم ، لأنهم قذفوا بهذا الشيطان ، الذى نغّص عيشى ، وأفسد علىّ يومى — وأغلب ظنى أن الشاعر العربى لم يقصد سواه حيث يقول :

تزيد الأرض إما مت خفاً   وتحيا إن حييت بها ثقيلا

نزلت بمستقر العرض منها   فتمنع جانبيها أن يميلا

وإنى لأسير بعد أن تحملت ما لاقبل لى باحتماله ، مفكراً فى أمثال هذا الطفيلى ، وأضراب هذا الدعىّ ، الذين يحشرون أنفسهم فى زمرة الأدباء ، والذين يهدمون صرح الأدب ، ويعيشون على هامش أفكار الغير كما يقولون . فتذوب نفسى أسى وحسرة ويداخلنى من الهم ما الله به عليم ، وليت شعرى على أى كتاب يسطون ؟ وعلى من يتطفلون .

رحم الله أمير المؤمنين المأمون العباسى . فلقد كان شديد الضرب على أيدى هذه الفئة التى كانت تندس بين الوفود التى تفد إلى دار الخلافة لرفع ظلامة أو بث شكاية ، ولم يكن لهم عنده من جزاء إلا السوط يدمى ظهورهم ، ويمزق أجسامهم .

فما بالنا اليوم نرى المتطفلين على موائد الأدب . وقد كثر عددهم واحتشد جمعهم ، وتطاير شرهم . لقد اصطفى الله إلى جواره شوقياً وحافظاً — ولو قد عاشا حتى رأيا بأعينهما . وسمعا بآذانهما لهالهما الأمر وتعاظمهما ، فقد اختلط الحابل بالنابل ، ونال منهما قوم مغرورون ، وطمع فيهما من لم يكن يدفع عن نفسه ، ظناً منهم أنهم يستطيعون هدم البناء الشامخ والحصن المنيع وفاتهم أن مثلهم :

كناطح صخرة يوماً ليوهنها   فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

وفى الحق إنها لحالة تدعو إلى الحزن العميق ، وإلا فما بال هذا الذى لا يفصح ولا يكاد يبين ، يعد نفسه فى عداد الأدباء ، بل ما بال المرء يستعين بغيره على إنشاء مقال ، ويبذل دون الوصول إليه ماء وجهه ، ليقال : إنه من أعلام البيان ، وليعد من فرسان الميدان — اللهم إنه الخزى والعار ، والفضيحة والصغار . « فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » .

كل هذا جال بفكرى ، وتردد فى خاطرى ، فرثيت لما آلت إليه حالتنا من فوضى واضطراب ، وجعلت ألتمس الطريق لأنجع وسائل العلاج ، ولكنى كنت كمن يستنبع الماء من الصخر ، أو يطلبه فى المهمه القفر .

مأمون شرف الدين



وصف حديقــة

بقلم محمد الهوارى

المدرس بمدرسة دمياط الابتدائية الأميرية

سِرْ بالْحَديقة قاصيهَا وَدَانيهَا تَلْقَ الطَّبيعَة قَدْ رَقَّتْ حوَاشِيهَا

فى قَلْبِ «أسوان» فَوْقَ الصَّخر نَاضِرَةً

لَوْ زِدْتهـا نَظَرًا زَادَتكَ تَرْفِيهَا

فَالْجَو مُعتدَل ، والزهْرُ مُبتسم والطيرُ فى طرَبٍ ، والماءُ يُرويها

وطُرْقُها بدقيق الرمْل قد فُرِشت وَأَخضرُ العُشبِ كَالدِّيباج يكسوها

☼☼☼

تَرَى الْأَرَائِكِ قد صُفَّتْ مُنَسَّقَةً حَوْلَ الْخَمائِلِ ، وَالْأَثمارُ تَعْلوهَا

وَمَاءهَا العَذبَ يَجرِى فى جَداوِلهِ جَرْىَ الأُسَاةِ فَيُحْيِي مَاذوَى فيهَا

☼☼☼

تَشْدُو الطيُورَ عَلَى أَفْنَانِهَا طَرَبًا فَتَهْدَأُ الرِّيحُ أَوْ يَهْدَا تُناغِيهَا

وَالْوَرْدُ مِنْ شَدْوِهَا قد ظَلَّ مُغْتَبِطًا يَرْنُو إِلَيْهَا فَتَسْمُو فِى أَغَانِيهَا

☼☼☼

سُورٌ مِنَ الفلِّ وَالرَّيْحَانِ مُزْدَهِرٌ كَأَنَّهُ هَالَةٌ ، بل زَادَ تَمْوِيهَا

يُهْدِى النَّسِيمَ عَبِيرًا ثمَّ يُرْسِلُهُ فَيَنْشَرُ الطِّيبُ فِى شَتَّى نَوَاحِيهَا

كتاب البلاغة التطبيقية فى البيان والبديع

للأخوين الفاضلين

الأستاذ حسن علوان والأستاذ محمد برانق

امتدت يدى إلى هذا الكتاب فى رفق ولين ، علّى أرى فيه مايشبع النفس ، ويروى الظمأ ، ويطفىء الغلة . فعلوم البلاغة من العلوم التى درجت زمنا طويلا تتنقل مُثُلها من كتاب إلى كتاب، ومن لسان إلى لسان ؛ قلّما تعثرفيها على جديد إلا فى الأقل النادرمن الكتب؛ فكان من المحبب إلى والمشوق عندى، أن أتصفح هذا الكتاب غير مأخوذ باسمى الأخوين وما لهما من الفضل والمنزلة عندى ، ووقع فى نفسى إخلاصا لهما ووفاء للفن ـ أنتى إن أغمضت عينى على قذى لكتاب يخرج للناس وتتداوله الأيدى ـ أكن كمن استسر دِمنَة وخان خلة ، واستظهر النصح ، واستبطن الغش ، وكانت المجاملة مخاتلة ، وصار الاستقلال فى الرأى مساوقة ومتابعة ؛ فتصفحته على هذا المبدإ، لأنخل مخزونه ، وأتعرف غثيثه من سمينه ، وتافهه من ثمينه .

وكان علىّ أن أرى فيه مادة جديدة ، ومثُلا مستطرفة لم يسبقا إليها ، وأنا أعلم أن فى هذا المشقة كلها ، لأنهما لهذا لابد أن يتنحيا عن كل ماوقع الغير عليه ، وسبق النظر إليه ، حتى يضيفا إلى الفن توضيحا ، ويضيفا عليه شرحا وتبيينا ، وحتى تتذلل لدى الطلاب الصعاب ، ويسهل عليهم تناول ثمر الطلاب .

فرأيت وتبينت أنهما فى صبر وأناة غربلا نثر الناثرين ، وشعر الشاعرين فى جميع عصور الأدب ، واختارا للفن الصرف منه ، والسليم فى ذوقه ، والحسن فى مبناه ومعناه ، فكثروا الأمثلة للأنواع ، ونوعوا الشواهد فى الأمثلة ، ووطئوا للقواعد بتنويع التمرينات ؛ لم يقصدا إلى الفن وحده ، ولكن جمعا بين الفن والأدب ، بل فوق ذلك ضمّا اليهما تاريخ الأدب ، إذ فيه من التراجم للكتاب والشعراء مالا يقل عن مائة وثمانين ترجمة ، على تباين فى عصورهم وخفاء فى مظانهم .

التمرينـــات

قدّما للتمرينات بذكر القاعدة إجمالا ، حتى يكون الطالب على ذكر منها وتتبع لها حين مزاولة التطبيق عليها ، ومع أن الكتاب لم يكن لها ، لم يفتهما أن يقفا عند الأبواب الجديدة فى المنهج وقفة محمودة ذللتها ووضحتها ؛ كتأكيد الذم بما يشبه المدح ، وكالتوجيه وأنواعه والفرق بينه وبين التورية ، وكالفرق بين تشبيه التمثيل والاستعارة التمثيلية .

ثم أتيا بالتمرينات تباعا كثيرة منوعة مسلسلة مرتبة على حسب عصور الأدب والسهوله والصعوبة ، شارحين ما خفى من لغتها ، وما التوى من معناها . ثم عقبا بتمرينات عامة على البيان والبديع والنحو والصرف ، ثم أتبعاها اختبارات عامة جامعة للإنشاء والأدب والبلاغة والقواعد ، متوخين فيها روح الأسئلة العامة فى امتحان شهادة الدراسة الثانوية .

المفتاح : ليس من السهل توفق التلميذ إلى تعرف شواهد البلاغة فى مُثُلها ، لاعتمادها على الذوق وعلى الإحساس الفنى ، وهو فى ذوقه حَدَثٌ بعد ، لا يأمن العثار لأنه فى دور التكوين . فجاء المؤلفان موفقين حيث توجا هذه التمرينات الكُثُر بمفتاح يبين شواهدها ويحل غامضها ، وضعاه آخر الكتاب حتى يسهل على التلميذ اقتناؤه ويخف حمله دانى القطوف ناضج الثمر .

ملحوظات

قد لحظت أنهما لم يكثرا من التمرينات الإيجادية ، وعذرهما فى هذا أن الطالب لا يستطيع أن يأتى فى البلاغة بمثل فصيحة سليمة ، فليس استعمال الألفاظ فى معان مجازية مما يسهل على الطالب تناوله .

وقد لحظت أنهما عند طلب بيان الاستعارة المكنية قد وضعا الخط تحت لازم المشبه به لا تحت المشبه ، ولكن عند إجرائها أجرياها فى المشبه على حسب المعتاد، وليس فى خروجهما عن المعتاد المألوف خروج على الفن، فالمسألة خلافية، فللجمهور رأى وللسكاكى رأى ولغيرهما آراء . فلا يأخذ نظر المطلع هذا الخط وعليه أن يرجع للمفتاح فليس الأمر بذى بال .

توفيق من الله أشكر الله لهما عليه وأهنئهما به

محمود الطنيخى

فهرس العدد الثالث من السنة الثالثة

